مفهوم المنهاج التربوي في التصور الاسلامي

إعداد

الدكتور علي أحمد مدكور

كلية التربية - جامعة الملك سعود

محتويات البحث

مقدمة ٣٣

طبيعة التصور الاسلامي ٣٧
مقومات التصور الاسلامي..... ٣٩
- حقيقة الألوهية ٤١
- حقيقة الكون:..... ٤٢
الكون المادي..... ٤٤
الكون المغيب ٤٦
واجب المنهج ٤٨
- الانسان في التصور الاسلامي ٤٩
- الحياة في التصور الاسلامي ٥٤
مفهومات عامة للمنهج ٥٩
مفهوم منهج التربية في التصور الاسلامي ٦٠
الخصائص التي يتميز بها هذا المفهوم:..... ٦١
- منهج نظام ٦١
- منهج رباني ٦١
- منهج التوحيد ٦٥
- منهج عالمي ٦٩
- منهج ثابت ٧٤
- منهج شامل ٧٩
- منهج متوازن ٨٧
- منهج إيجابي ٩٦
- منهج واقعي ١٠٢
- منهج فريد ١٠٩
الهوامش ١١٣
المراجع ١١٨

مقدمة

لقد جاء الاسلام، والعرب قبائل تافهة حقيرة، لا يعترف بها، ولا قيمة لها في موازين الأمم، فصنع من الحفاة الرعاة سادة للانسانية وصناعا للحضارة، الى الحد الذي استطاعوا به دك عرشي كسرى وقيصر، وتدمير عنجهية الفرس والرومان، ونشر دين الله في أرض الدولتين اللتين كانتا تقتسمان العالم يومذاك كما تقتسمه اليوم أمريكا وروسيا. كان ذلك يوم كان الاسلام يعيش في قلوبهم وفي كل جارحة من جوارحهم، يعيشون به، ويعيشون له. لم يكن لهم من إله إلا الله، ولا من دستور غير القرآن، ولا من معلم غير محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

عندما كان المسلمون كذلك، كانوا هم الغالبين، وكانوا قادة الدنيا وسادتها، وكان لهم من الله الاستخلاف، والتمكين والتأمين، والنصر، وبركات من السماء والارض.

وعندما انحرفوا بسلوكهم وأخلاقهم ومفاهيمهم عن منهج الله، وأتخذ كثير منهم إلهه هواه، واتخذوا دساتير شرقية وغربية غير القرآن، ومعلمين شرقيين وغربيين غير محمد صلى الله عليه وسلم.. عندئذ فقدوا كل شئ؟: القيادة والريادة، وحتى تفاعل الند للند، وتحولوا إلى السلبية والتبعية والسير وفق "فلسفات" الآخرين ونظرياتهم، ونظم حياتهم ودساتيرهم!

إننا الآن في زمن التفجر المعرفي المتلاحق، والتطور الهائل في وسائل الاتصالات والإعلام، زمن البث الإذاعي والتلفزيوني الدولي المباشر، الذي يحمل في طياته غزوا ثقافيا مقصودا وغير مقصود(١)؛ زمن يبدو فيه العالم كقرية صغيرة يرى ويسمع القاصي فيها الداني..زمن بدأت تتآكل فيه الحدود والفواصل بين الثقافات والمناهج والنظم في العالم؛ في هذا الزمن لا تملك هذه الأمة أن تصير طرفا إيجابيا فاعلا في التفاعل الثقافي العالمي فقط، بل لا بد أن تصير طرفا قائدا، ورائدا، وموجها لهذا التفاعل، فهذه وظيفة الأمة الاسلامية، ولهذه الوظيفة أوجدها

الله: "كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله".. وليس لها بديل آخر إلا التبعية والانسحاق.

ولن تقوم الأمة بهذه الوظيفة المنوطة بها من قبل الله، وهي منحرفة عن هدفها الاكبر في تربية أجيالها. لقد تحولت الأمة عن الهدف الأكبر لوجودها، وهو تحقيق معنى العبودية لله، عن طريق إعداد أبنائها للقيام بحق الخلافة في الأرض، وتحقيق منهج الله فيها بإعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق هذا المنهج؛ تحولت عن هذا الهدف إلى هدف آخر هو التربية بالنمو وللنمو، وعن طريق النمو، والتربية بالخبرة، وعن طريق الخبرة!(٢)

والذي لا شك فيه أن الانحراف عن الهدف كان مرده الانحراف عن التصور. لقد انحرف المسلمون عن التصور الإسلامي لحقيقة الألوهية، وحقيقة الكون والإنسان والحياة، وحقيقة العلاقات والارتباطات بينها. ولقد أدى الانحراف عن هذا التصور إلى فساد حياة الإنسان المسلم، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، والأمة الإسلامية.

أما بالنسبة لدول العالم المتقدمة ماديا، فهي تقف اليوم هي الأخرى على حافة الهاوية، وذلك بسبب إفلاسها في عالم "القيم" التي يمكن أن تنمو الحياة في ظلها نموا سليما، وتترقى ترقيا صحيحا، خاصة بعد أن انتهت "الفلسفات" فيها و"الديمقراطيات" إلى ما يشبه الإفلاس. (٣)

إننا جميعا في حاجة إلى منقذ، إلى مخلص؛ والإسلام هو المنقذ، وهو المخلص..لابد - اذن- من العودة الكاملة الشاملة إلى الله.

إن منهج الله، وتطبيقه تطبيقا صحيحاً في واقع الحياة هو البداية التي يجب أن ننطلق منها في كل اتجاه، في السياسة، والاقتصاد والاجتماع والتربية. فالاسلام هو المنهج الوحيد الذي يستطيع إنقاذنا من التردي الذي نحن فيه، نتيجة السير وفق "فلسفات" و "أيديولوجيات" مختلفة ومتناقضة، أقل ما يمكن أن يقال

فيها: إنها أزياء فصلت وطرزت لمجتمعات تختلف في عقائدها، وقيمها، وأنماط حياتها اختلافا جذريا عن مجتمعاتنا. وأننا منذ انفتحنا عليها نعب منها عبا دون مناقشة، لم نصل إلا إلى هذه الفوضى الثقافية والتربوية التي هي طابع حياتنا المعاصرة!(٤)

إن لكل نظام من نظم التربية والتعليم روحه الخاصة وضميره الخاص النابعان من تصور أهله للكون والإنسان والحياة، فتربية الأجيال المسلمة في ظل نظم التربية غير الإسلامية يؤدي إلى صراع العقل والضمير، وإلى الردة الفكرية والدينية. يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: "ولا يخفى على المطلع الخبير أن لنظام التعليم روحاً وضميراً كالكائن الحي له روح وضمير. إن روح نظام التعليم وضميره إنما هو ظل لعقائد واضعيه ونفسيتهم، وغايتهم من العلم، ودراسة الكون، ووجهة النظر إلى الحياة، ومظهر لأخلاقهم. وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة وروحاً وضميرا يشعرها بذاتها. إن هذه الروح هي التي تسري في هيكله تماما، إنها تسري في جميع العلوم. في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون، والعلوم العمرانية، حتى في علمي الاقتصاد والسياسة بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح. وليس في وسع كل شخص أن يميز بين الصحيح والسقيم منها، وإنما يتيسر ذلك لرجل أوتي من قوة الاجتهاد، وملكة النقد القوية ما يستطيع به أن يميز الجزء النافع من الجزء الضار، فيكون عاملا بمبدأ "خذ ما صفا ودع ما كدر". فإذا طبقنا النظم التربوية غير الإسلامية في بلاد مسلمة، إو مجتمع إسلامي ، فإنه يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي، ثم يتدرج ذلك إلى تزعزع العقيدة، والردة الفكرية، وأخيرا إلى الردة الدينية... إلا من عصم ربك"(٥).

ولكي تتخلص الأمة الإسلامية من كل ألوان الفوضى الفكرية والتربوية التي هي طابع حياتها المعاصرة، وتعالج كل صنوف العورات وعوامل الضعف والتفكك، ومن ثم تسترد مركز القيادة في هذا العالم، لكل هذا لا بد من تصحيح منهج التلقي والتربية وبناء الإنسان. وتصحيح منهج التلقين من أجل بناء الإنسان

المسلم المعاصر الذي يقود الحياة في عالمه على عهد الله وشرطه، يقتضي مجموعة من الأمور أهمها ما يلي:

أولا: بيان طبيعة التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، وطبيعة مركز الإنسان في الكون، ووظيفته في الحياة. وهو التصور الذي يعتبر المصدر الوحيد الموجه لكل نظم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية.

ثانيا: تحديد الأهداف العامة النابعة من التصور الإسلامي، التي يجب على المناهج التربوية-على اختلاف ألوانها- تحقيقها في شخصية المسلم المعاصر، حتى يستطيع القيام بحق الخلافة في الأرض عن طريق الإسهام بإيجابية وفاعلية في إعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

ثالثا: تربية الطاقات والمدارك الإنسانية، الظاهرة منها والخفية، التي أودعها الله في الإنسان من أجل الإدراك والتفكير والإحسان في العمل، مثل تربية طاقة السمع، وتربية طاقة البصر، وتربية العقل، وتربية الجسم، وتربية الضمير، وتربية الإدارة الحرة الواعية..الخ.

رابعا: التركيز على إيضاح المفاهيم الرئيسية التي تسهم في فهم طبيعة التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، وطبيعة العلاقات والارتباطات بينها مثل: مفهوم "لا إله إلا الله"، ومفهوم "الدين"، ومفهوم "الخلافة في الأرض"، ومفهوم "العبادة في الإسلام" ومفهوم "الجهاد" ومفهوم "الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي"، ومفهوم "الحرية بين الشورى والديمقراطية...إلخ(٦).

بالطبع لن تكون مهمة هذا البحث الخوض في كل الأمور السابقة، وإنما سينحصر دوره في الإجابة عن السؤالين التاليين:

السؤال الأول: ما طبيعة التصور الإسلامي للكون والانسان والحياة، وهو التصور الذي يجب أن تنبثق منه كل نظم الحياة الإسلامية ومفاهيمها؟

السؤال الثاني: ما مفهوم منهج التربية المنبثق عن هذا التصور، وما خصائصه التي تميزه عن كل المناهج الأخرى؟

إن مهمة هذا البحث هي الإجابة عن هذين السؤالين والله الموفق والمعين.

طبيعة التصور الاسلامي:

لكي نفهم منهج التربية، لا بد أن نفهم طبيعة التصور الإسلامي؛ لأسباب كثيرة، أهمها ما يلي:

أولا: إنه لا بد للمسلم من تفسير شامل للوجود، يتعامل على أساسه مع هذا الوجود. فلا بد من أن يفهم حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان وما بينها جميعا من ارتباطات.

ثانيا: لا بد للمسلم من معرفة حقيقية مركز الإنسان في هذا الوجود الكوني، وغاية وجوده الإنساني، وحدود اختصاصاته، وعلاقاته بخالقه وخالق الكون جميعا.

ثالثا: إنه بناء على فهم الإنسان لذلك التفسير الشامل، وعلى فهمه لحقيقة مركزه في الوجود الكوني، ولغاية وجوده الإنساني يتحدد منهج حياته، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج والفرق بينه وبين المناهج الأرضية الأخرى.

رابعا: لا بد للمسلم من أن يعرف أن الإسلام إنما جاء لينشىء أمة ذات طابع خاص متفرد، وهي في الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية. وتحقيق منهج الله في الأرض. وإدراك المسلم لكل هذا هو الذي يكفل له أن يكون عاملا ايجابيا صالحا في بناء هذه الأمة، وقائدا وموجها في عملية البناء والترقية.

وباختصار فإنه لا بد للإنسان كي يستقر على قرار في أمر هذا الكون وفي أمر نفسه وفي غاية وجوده وفي منهج حياته من فهم حقيقتين أساسيتين متلازمتين للحياة البشرية وللنفس الإنسانية في كل حال وزمان.

الحقيقة الأولى:

هي أن الإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل ذرة تائهة ضائعة. فلا بد له من رباط معين بهذا الكون، يحدد له مكانه، ويضمن له الإستقرار فيه. لا بد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، فهي ضرورة فطرية وشعورية.

الحقيقة الثانية:

هي أن هناك تلازما وثيقا بين طبيعة التصور الإعتقادي الإسلامي وبين طبيعة النظام الاجتماعي الإسلامي. فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود ولمركز الإنسان ووظيفته فيه، ولغاية الوجود الإنساني كله. وكل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا التفسير، هو نظام مصطنع لا يعيش. وإذا عاش فترة شقي به الإنسان، ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتما، كما حدث أخيرا لبلاد الكتلة الشرقية.

فالتلازم الوثيق بين طبيعة التصور الإعتقادي الإسلامي، وبين النظام الاجتماعي هو إذن ضرورة تنظيمية، كما أنه ضرورة شعورية (٧).

وإذا كان المجتمع الإسلامي، لا يمكن أن يكون إسلاميا حقا إلا إذا سار هذا التصور الإعتقادي فيه كسريان الدم في شرايين الجسم، والروح في الجسد، فإن هذا ينطبق بالتالي على مناهج تربية الصغار والكبار في هذا المجتمع، بل ويتحقق بواسطتها.

إننا عندما نبني منهج التربية على أساس التصور الإسلامي الذي يحدد طبيعة التصور الإعتقادي الإسلامي وطبيعة التصور الاجتماعي الإسلامي المنبثق عنه، فإننا نهدف إلى تثبيت الخصائص والمقومات التي تحدد الملامح الربانية لهذا المنهج، وتميزه عن غيره من المناهج البشرية المحيطة به، وبذلك يحافظ منهج التربية الإسلامية على المجتمع الإسلامي من الذوبان في المجتمعات الأخرى التي جاء هو أصلا لهديها وقيادتها.

مقومات التصور الإسلامي

قلنا فيما سبق إنه لا بد للإنسان من أن يفهم حقيقة الألوهية وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان، وما بينهما جميعا من ارتباطات. وبذلك يتعرف إلى مركزه في هذا الوجود الكوني، وإلى غاية وجوده الإنساني، وحدود اختصاصاته، وعلاقاته بخالقه وخالق الكون جميعا، وبذلك يتحدد أيضا منهج حياته، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج، والفرق بينه وبين المناهج البشرية أو الأرضية.

إن التصور الإسلامي لحقيقة الإلوهية، وحقيقة الكون والإنسان والحياة هو أكمل وأشمل تصور عرفته البشرية، لأنه صادر عن رسالة الإسلام العالمية الخاتمة، إنه التصور الذي لا يأخذ جانبا من الوجود ويدع جانبا آخر... وإنما يأخذ الوجود كله بمادياته وروحانياته، بشهوده وغيبياته، وكل كائناته، لذلك فإن هذا التصور - بشعبه الأربع: الله، والكون، والإنسان، والحياة - هو القاعدة والأساس الذي يبنى عليه منهج التربية الإسلامية. أنظر الشكل المرفق.

"فالتصور الإسلامي يبدأ من الحقيقة الإلهية التي يصدر عنها الوجود كله، ثم يسير مع هذا الوجود في كل صوره وأشكاله وكائناته وموجوداته، ويعنى عناية خاصة بالإنسان -خليفة الله في الأرض - فيعطيه مساحة واسعة من الصورة، ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلهية التي صدر عنها وإليها يعود".

"وهو في هذه الجولة الواسعة من الله وإليه، يشمل كل دقائق الكون، لا يغادر منها شيئا يقع في محيطه، سواء منها ما تدركه الحواس وما لا تدركه، وما يدركه العقل بوعيه، وما تدركه الرروح فيما وراء الوعي، ويشمل كل نشاط الإنسان وكل طاقاته. سواء نشاطه المادي ونشاطه الروحي، وسواء حياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وسواء عمله في الحياة الدنيا، وفيما وراء هذه الحياة"(٨).

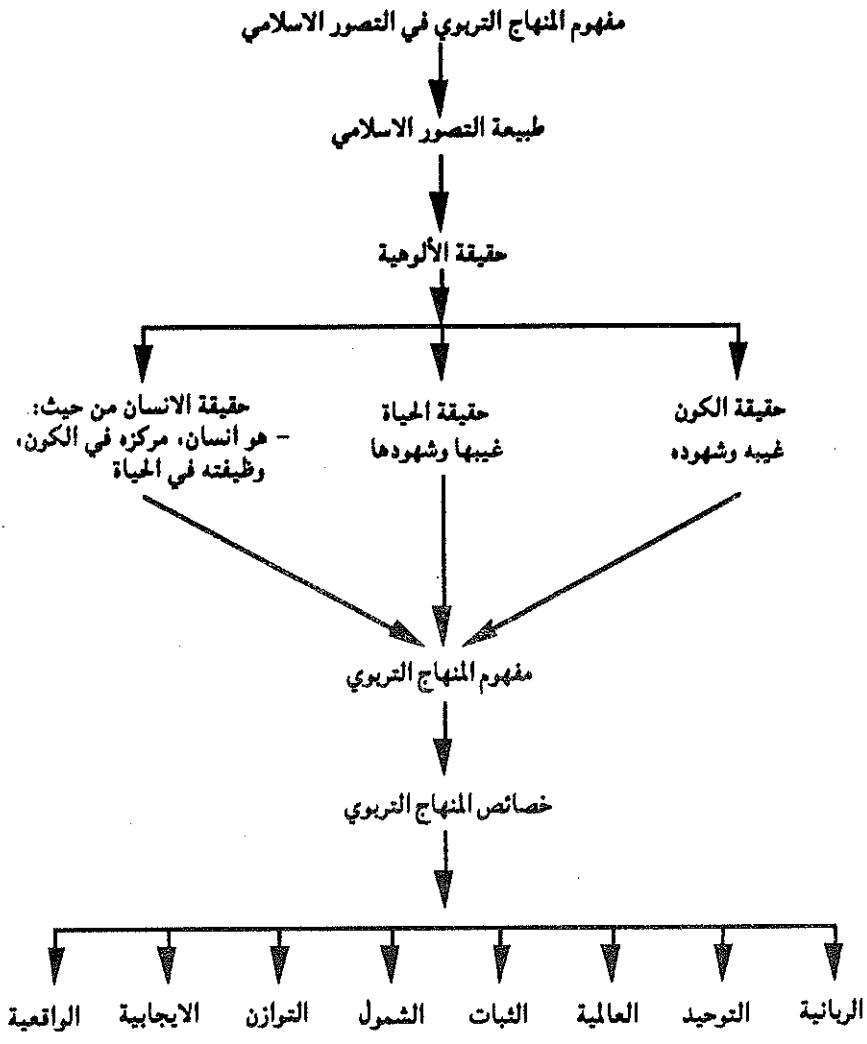

شكل يمثل مفهوم المنهاج التربوي وخصائصه

حقيقة الإلوهية:

"تتنوع مقومات التصور الإسلامي وتتوزع، ثم تتضام بعد ذلك وتتجمع، لتكون "الكل" الذي يشخص ويمثل ذلك التصور.. هذا "الكل" هو: العبوديه لله وحده بلا شريك، والدينونه لله وحده بلا منازع، وشمول هذه العبودية لكل شيء، ولكل حي في هذا الوجود، في عالم الغيب وفي عالم الشهادة، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في نظام الكون وفي حياة الناس، وتفرد هذه الإلوهية الواحدة بخصائصها، وتجرد هذه العبودية من هذه الخصائص.

هذه هي قاعدة التصور الإسلامي الأساسية، فالتصور الأسلامي "يفصل فصلا تاما بين طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية، فهما لا يتماثلان ولا يتداخلان، كذلك يبين التصور الإسلامي بيانا حاسما: من هو "الله" صاحب الألوهية، ومن هم "العبيد" الذين تتمثل فيهم العبودية(٩).

عن مشيئة الله الواحد سبحانه صدرت كل الخلائق، وبقدر الله تقوم وتتحرك، لا شريك في هذه الألوهية.. لا في حقيقتها ولا في خصائصها، ولا في سلطانها..

"إن المنهج القرآني يجلي هذه الحقيقة بآثارها الفاعلة في هذا الوجود.. في الخلق والتدبير، في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه، في تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، في إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، في إرسال الرياح لواقح، وإنزال الماء من السماء. في انبثاق الحياة من الموات وانبثاق الصبح من الظلام. في إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، في بدء الخلق وإعادته، في القبض والبسط، في البعث والنشور، في النعمة والنقمة، في الجزاء والحساب، في النعيم والثواب.. في كل حركة وكل انبثاقة، وكل تغير وكل تحور في عالم الغيب أو في عالم الشهادة، في هذا الوجود الكبير"(١٠).

وهكذا .. فنادرا ما يتحدث المنهج القرآني عن الذات الإلهية والصفات الإلهية في الصورة التجريدية كما يفعل الفلاسفة وعلماء اللاهوت وعلماء الكلام.

والحقيقة الإلهية "هي في طبيعتها الكلية المطلقة الأزلية الأبدية أكبر من مجال إدراك الكينونة البشرية الجزئية المحدودة الحادثه الفانية. ولكن حسب "الإنسان" منها ما يصح به تصوره، وما يستقيم به فكره، وما يصلح به ضميره وما تنتظم به حياته، وما يعرف به حقيقة مركزه، ودائرة سلطانه، ومقتضيات عبوديته لهذه الألوهية.. وهو قادر على إدراك هذا القدر عن تلك الحقيقة الكلية المطلقة الأزلية الأبدية.. القدر الذي لا يصح له تصور ولا يستقيم له فكر، ولا يقبل منه عمل، إلا حين يصح إدراكه له. لا إدراك "الفكرة" أو "النظرية" ببرودتها الساكنة! ولكن إدراك "العقيدة" بحيوتها الدافعة، وإلا حين يقوم خلقه وسلوكه، وتقوم حياته وأوضاعه، وتقوم شرائعه وقوانينه، وتقوم قيمه وموازينه، وتقوم معرفته وثقافته، ويقوم نشاطه في الحياة كله على أساس هذه العقيدة"(١١).

إن "حقيقة الألوهية" -كما يجلوها المنهج القرآني(١٢)- ذات أثر إيجابي في الكون، وفي ضمائر المؤمنين، وقولهم، وفي واقع حياتهم، بقدر ما هي في ذاتها حق، وبقدر ما هي ذات بهاء وجمال وكمال.

إن الكون لا يستقيم بغير هذه الحقيقة، والضمير البشري لا يستقيم بغير هذه الحقيقة، والعقل البشري لا يستقيم بغير هذه الحقيقة، والحياة البشرية كلها لا تستقيم بغيه هذه الحقيقة.

حقيقة الكون:

إن العقيدة الإسلامية من شأنها أن تنشىء في إدراك المؤمن تصورا واضحا لحقيقة الكون، ولعلاقته بربه، وعلاقته بالحياة والأحياء -بما في ذلك الإنسان- وأن تقر في عقله وضميره الطمأنينة لذلك التصور.

"إن هذا الكون -كما يقرر المنهج القرآني- كون مخلوق حادث، وليس بالقديم الأزلي. كما أنه لم ينشأ من ذات نفسه، لقد خلقه الله سبحانه، خلقه خلقا، وأنشأه

إنشاء، بعد أن لم يكن. سواء في ذلك مادة بنائه الأساسية، أو الصورة التي ظهرت فيها. ولم يشارك الله -سبحانه- أحد في خلق هذا الكون، ولا في خلق شيء منه، سواء في ذلك مادته أو صورته. إن الله -سبحانه- هو الذي أعطى كل شيء خلقه، وأعطى كل شيء صورته، وأعطى كل شيءوظيفته.(١٣)

"خلق السماوات والأرض بالحق، تعالى عما يشركون" (النحل: ٣)

"الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل" (الزمر: ٦٢).

"ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا" (الكهف: ٥١).

وإذا كان القرآن قد أشار إلى بعض الحقائق الكونية، فإن هذا ليس مبررا لأن نتلمس الموافقات بين النصوص القرآنية التي تشير إلى بعض الحقائق الكونية وبين النظريات والكشوف العلمية الحديثة، لأن هذا خطأ من الناحية الاعتقادية، ومن الناحية المنهجية العلمية أيضا. أما من الناحية الاعتقادية، فالنصوص القرآنية صحيحة وصادقة بذاتها لا بشهادة من خارجها عليها، والمؤمن بها لا يجوز إن تدركه الهزيمة أمام علم البشر فيستشهد به على صدقها وصحتها.

ثم إن ما تعارف البشر على أنه "نظريات علمية" و "حقائق علمية"، كلاهما ليس قطعي الدلالة، ولا مطلق الدلالة؛ فهو علم ظني في أحسن الأحوال.. إن من المعروف أن "النظريات العلمية" ليست سوى "فروض راجحة" لتفسير ظاهرة أو ظواهر كونية، وهي عرضة للتبدل والتغير والتعديل والإلغاء، فأين يذهب النص القرآني إذا نحن علقناه بنظرية ببعض الفروض المتغيرة، هل نحمله ونجري به وراء نظرية أخرى لعلها تتوافق معه؟!

إن الحقائق القطعية المطلقة لا يملكها إلا الله -سبحانه- بحكم ألوهيته المهيمنة على الكون كله، أما "الحقائق العلمية" فهي -كما يقرر العلماء -مجرد

احتمالات راجحة، لا قطعية الدلالة ولا مطلقة الدلالة، وطبيعة المنهج العلمي التجريبي لا تسمح بغير هذا، فالإنسان هو الذي يقوم بالتجربة، ومن ثم فهو لا يعتمد على نتائج إحصائية (بمعنى استقرائية)، وإنما يعتمد على نتائج قياسية. فهو يجري تجاربه على عدد محدود -مهما كثر- من المادة التي هي موضوع التجربة، ثم يقيس ما لم تتناوله تجاربه على ما تناولته هذه التجارب.

إن الحقائق الإلهية القطعية المطلقة لا تحتاج إلى برهان خارج عنها، ولا يستشهد على صدقها وصحتها بشيء من الحقائق الظنية المقيدة، لا من الناحية الاعتقادية فقط، ولكن من الناحية المنهجية العلمية أيضا.

ومع ذلك، فإن هذا لا يمنع من الانتفاع بما يثبت من "الحقائق العلمية" -وليس "النظريات العلمية" -في توسيع مدى الرؤية البشرية لدلالات بعض النصوص القرآنية.(١٤).

والكون في التصور الإسلامي هو آية الله الكبرى، ومعرض قدرته المعجزة المبهرة، أراده الله فكان، وقد قدره تقديرا محكما، وجعل كل شيء فيه خاضعا لإرادته وتدبيره.(١٥).

"وخلق كل شيء فقدره تقديرا" (الفرقان: ٢).

"وكل شيء عنده بمقدار (الرعد: ٨).

"إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون" (النحل: ٤٠).

الكون المادي:

والكون في التصور الإسلامي قسمان: كون محسوس، وكون غير محسوس.. شهادة وغيب. ولقد تناول الإسلام الكون المادي المتطور، وعرض الكثير من ظواهره، كالشمس والقمر، والسماء، والأرض، والمطر، والنبات، والبحار، والأنهار، والجبال، والشجر، والدواب.. إلى آخره. وقد تكلم الإسلام عنها في بدء خلقها،

وتكلم عنها في عوارض وجودها، وتكلم عنها في بعض نهاياتها، وقد عرض لهذه النواحي لا ليعالج أمرها علاجا فنيا تحليليا، فيكون كتاب هيئة، أو كتاب نبات، أو كتاب حيوان. ولكن عرض لها لأنها دلائل قدرة الله تبارك وتعالى، وعلائم صنعه الدقيق الحكيم ولتكون نبراسا يهدي الناس لمعرفة الله:

"الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذي مد الأرض، وجعل فيها رواسي وأنهارا، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب وزرع ونخيل، صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" (الرعد: ٢-٤).

"قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين.. وتجعلون له أندادا، ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم" (فصلت: ٩-١٢).

"إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين" (الأعراف: ٥٤).

"وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون" (يس: ٣٧-٤٠).

وهكذا نرى أن القرآن لم يتناول الكون المشهود من الناحية الفنية، لأن القرآن كتاب للتوجيه، يصل الإنسان بالله، ولو تعرض لهذه النواحي لما انتهى أمره. ومن ناحية أخرى يدرك ضرورة ترك الحرية للعقل الإنساني كي ينمو ويتقدم حتى يدرك مكونات الكون، ويدرك صورها بسبب تدرجه في قوته واكتماله.. فكلما ارتقى العقل الإنساني اكتشف ناحية من نواحي الدقة، وجانب من جوانب القدرة، التي يصعب أن تتجلى للإنسان في طور واحد من أطوار حياته.

وواجب المنهج أن يتناول هذا الجانب من الكون بالدراسة والتفكير والتدبر، واكتشاف قوانين الله فيه عن طريق الملاحظة والتجربة، كما أن هذا الجانب من الكون لا يمكن قهره -كما يقال- وإنما التلطف معه واستثمار خيراته لخير الناس جميعا.

الكون المغيب

أما القسم الآخر من الكون، فهو الكون المغيب، أو غير المحسوس، وهو الذي يسمي "عالم الغيب"، فهو عالم لا يدخل في حدود الكون المادي، الذي يمكن أن ندرك مكوناته بالحواس ومن هذا العالم الروح، والملائكة، والجن والملأ الأعلى، والتخاطر عن بعد، وتأويل الأحلام...إلخ.(١٦).

فهناك شيء اسمه الروح، وهو مكون من مكونات الإنسان، وهو من أمر الله تبارك وتعالى: "ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" (الإسراء: ٨٥).

"وإذ قال ربك للملائكة" إني خالق بشرا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" (الحجر: ٢٩).

ومن الكون غير المرئي الملائكة: "جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى، وثلاث ورباع" (فاطر: ١).

وهم يقومون بأعمال .. فهم يسبِّحون ويستغفرون، ثم إنهم مكلفون ببعض أعمال الجزاء: "وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة" (المدثر: ٣١).

ثم إنهم يحيون أهل الجنة: "والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" (الرعد: ٢٤).

ثم إنهم يقومون ببعض المهام الروحية، مثل تسام الأرواح: "ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت، والملائكة باسطو أيديهم، أخرجوا أنفسكم، اليوم تجزون عذاب الهون، بما كنتم تقولون عن الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون" (الأنعام: ٩٣).

ثم إنهم يستخدمهم ربهم في تأييد عباده المؤمنين: "إذ تقول للمؤمنين: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين" (آل عمران: ١٢٤).

وهناك من عالم الغيب، الجن وقد وصفوا بأنهم كانوا يسترقون السمع، وأن فيهم القدرة على تصريف الأمور أكثر من قدرة البشر: "قال عفريب من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإني عليه لقوي أمين" (النمل: ٣٩).

ومن الجن صنفٌ من الشياطين، وهم الذين يزينون للناس الأعمال الضارة، والمعاصي المهلكة، وعلاقة الجن بإبليس قوية، فإنه كبيرهم، وأنهم كانوا يعلمون الكتب المقدسة، وكانوا يوازنون بينها موازنة دقيقة:

"قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد، فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا. وأنه تعالى جد ربنا، ما اتخذ صاحبه ولا ولد. وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا. وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا. وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا. وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا. وأنا لمسنا السماء فوجدناه ملئت حرسا شديدا وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا. وأنا

لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا. وأنا منا الصالحون، ومنا دون ذلك، كنا طرائق قددا" (الجن: ١-١١).

ومن الكون المغيب الملأ الأعلى، ومن عوالم الملأ الأعلى: سدرة المنتهى، والعرش، والكرسي، واللوح المحفوظ، والبيت المعمور ... وغيرها مما لا يعلمه إلا الله.

"ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون: (ص: ٦٩).

"والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. اذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى" (النجم، ١-١٧).

واجب المنهج:

وهكذا تناول القرآن الكريم هذا الكون غير المرئي بايجاز بليغ، دون تعرض لحقائقه، وإن كان قد تعرض فقط لبعض خواصه. فلم يذكر -مثلا- كيف خلق الله الملائكة، ولم يذكر شيئا عن أصل الروح، ولا عن هياكل الملأ الأعلى.

وواجب الباحثين أن يتأدبوا بأدب القرآن، وأن يقفوا عند حد ما جاء به، ولا يتركوا العقل يسبح فيها: "ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولا" (الإسراء: ٣٦).

إن القرآن لم يتناول هذا الجانب المغيب من الكون بالتفصيل، لأن القرآن جاء للفائدة، ولا فائدة تعود على البشر من الخوض في هذا العالم، إننا نتخاطب بلغتنا، وبحسب ما نعرف، وما نفهم واللغة عندنا لا تتناول إلا ما يقع في دائرة المتكلمين بها

حسا ومعنى. فاللغة تصور المعاني والإحساسات التي تقع في دائرة المتكلمين بها، فكيف يمكن أن تصور جوانب هذا العالم المغيب وتفصيلاته؟! إن الفيض في هذه النواحي لن يوصل إلى شيء سوى الفرقة والجدل!.

والخلاصة أن على منهج التربية في التصور الإسلامي أن يوطدكل صلات الوحدة وعلاقات الترابط بين الإنسان والكون والحياة. "فالله الواحد الأحد الفرد الصمد، خلق الكون والإنسان والحياة في انسجام كامل، فالكون صديق للإنسان إذا عرف نواميسه (عن طريق التعلم والمعرفة). وفي عناصر الكون ما يناسب استمرار الحياة ما شاء الله لها أن تستمر. إذا عرف الإنسان ذلك وتعلم كيف يكيف بيئته لتناسب هذه الحياة. فبين الكون والإنسان والحياة صداقة طبيعية، وانسجام أصيل، وليس عراك مستمر وصراع مخيف".(١٧).

الإنسان في التصور الإسلامي

الإنسان جزء من الكون، وهو مخلوق من طين الأرض وفيه، نفخة علوية من روح الله، فالإنسان في التصور الإسلامي هو هذان العنصران المختلفان، مترابطين ممتزجين في كيان كلي واحد:

"وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين. فاذا سويته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين" الحجر:٢٩

وهو كائن من كائنات الملأ الأعلى، لأن إنسانيته لم تتكون ولم تتشكل إلا بعد أن نفخ الله فيه من روحه. فقد نشأ في الملأ الأعلى ... ثم هبط على الأرض اختيارا: "قلنا اهبطوا منها جميعا، فإما يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (البقرة: ٣٨).

وقد عقدت له الخلافة في الأرض ليعمرها ويرقيها وفق منهج الله: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" (البقرة: ٣٠).

وهو معان من الله على القيام بحق الملائكة، فالكون كله مسخر له:

"وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه" (الجاثية: ١٣).

"ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات، وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة" (لقمان: ٣٠).

وهو أكرم خلق الله على الله:

"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا" (الإسراء: ٧٠).

ولأن الإنسان كريم على الله، ومعقودة له خلافة الأرض، فهو محسوب حسابه في تصميم الكون قبل أن يكون: "وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون" (النحل: ١٥) ... "ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرؤف رحيم" (الحج: ٦٥).

"إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" (البقرة: ١٦٤).

"إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم، وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون" (الأنعام: ٩٥-٩٧).

والإنسان مزود بخصائص الخلافة. وأولى هذه الخصائص: الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة. وهو مجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها، ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب، والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته ... وهو مستعد للتعامل مع الكون كله بمن فيه وما فيه. فهو يتعامل مع ربه، وهو يتعامل مع مخلوقات الملأ الأعلى من الملائكة، ويتعامل مع الجن والشياطين، ويتعامل مع نفسه ومع استعداداته وطاقاته. ومع طاقات الكون الظاهرة والخفية ... يتعامل مع كل هذا على عهد الله وشرطه.

والإنسان -كما أسلفنا- يكون في أرفع مقاماته، وفي خير حالاته، حين يحقق مقام العبودية لله؛ إذ إنه -في هذه الحالة- يكون في أقوم حالات فطرته، وأحسن حالات كماله، وأصدق حالات وجوده"(١٨).

والبشر جميعا من أصل واحد: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء "(النساء:١).

ولقد خلق الله البشر أمما، وقبائل، وشعوبا، ليتعارفوا، ويتعاونوا، لا ليتنافروا ويتناحروا "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (الحجرات: ١٣).

"والكون مصمم على قاعدة الزوجية، التي هي خاصية كونية وحيوية وعلى قاعدة التكامل بين الزوجين لا التماثل، وهذه كذلك خاصية كونية وحيوية.

والعقل الإنساني هو مناط التكليف، وهو شرف الإنسان وامتيازه، وقدرة الإنسان على التفكير والاختيار، هي التي أهلته لهذا الاستخلاف، ولحمل مسؤولية تنفيذ منهج الله في الأرض، فالعقل هو مناط التكليف والمسؤولية.

والعقيدة هي رابطة التجمع الإنساني الرئيسية في نظر الإسلام، وليس الجنس، ولا القوم، ولا اللغة، ولا الأرض، ولا اللون، ولا الطبقة الاجتماعية أو

المصالح السياسية أو الاقتصادية. وذلك لأن العقيدة مرتبطة بحرية الإنسان واختياره وإرادته، أما روابط القوم، والأرض أو اللحم، الدم، والطين، فلا إرادة للإنسان فيها. فالإنسان ليس حرا في اختيار بلده أو أهله وقومه، ولكنه حر تماما في اختيار عقيدته وفكرته ومنهجه.

والإنسان حر لأنه مسؤول؛ فالحرية والمسؤولية وجهان لعملة واحدة، فالحرية تستلزم المسؤولية، والمسؤولية تتطلب الحرية.

وحرية الإنسان ليست حقا من حقوقه، يمكن أن يمنح له أو يمنع عنه، وإنما هي فطرة في طبيعته، وجزء من إنسانيته، بها يصير إنسانا مسؤولا وبدونهايهبط إلى درجات أدنى بكثير من الحيوان. فهو حر حتى في العقيدة التي يؤمن بها: "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" (الكهف: ٢٩). "كل أمرىء بما كسب رهين" (الطور: ٢١). "ولا تزر وازرة وزر أخرى" (فاطر: ١٨).

وقد عبر سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- عن فطرة الحرية في الطبيعة الإنسانية، عندما قال لولد عمرو بن العاص: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!".

إن الحرية هي من أثمن ما جاء به الإسلام؛ فالتوحيد قرين التحرير، وشهادة "لا إله إلا الله"، هي إعلان عن ميلاد الإنسان الحر في هذا الكون الذي يسجد لله وحده، ويخشى الله وحده. ومن هذا المنطلق فإن الاستبداد يصبح قرين الشرك؛ لأنه يحيل الناس عبيدا لآلهة من البشر، ويدفعهم إلى السجود لغير الله!

وشعور الإنسان بألوهية الله، وبوجود الله الواحد الأحد، هو شعور فطري، مستقر في أساس تكوينه، فالإنسان في تكوينه نفخة من روح الله، وعلاقته بخالقه هي علاقة المخلوق بخالقه الرحمن الرحيم، وهي علاقة لا يستطيع أي مخلوق دفعها أو الحياد عنها. (١٩)

فشعور الإنسان بوجود الله خالقه، هو قانون من قوانين وجوده الروحي، وضرورة من ضروراته التي لا يستطيع أن يتخلى عنها. فحاجة الإنسان إلى الإيمان بالله كحاجته إلى التنفس، وإلى الطعام والشراب، والراحة، فإذا كانت حاجاته هذه قانوناً من قوانين وجوده المادي. فإن إيمانه بالله الخالق، الرحمن، الرحيم، هو قانون من قوانين وجوده الروحي، وضرورة من ضروراته.

إذن، فشعور الإنسان بوجود الله فطرة في الطبيعة الإنسانية: "فأقم وجهك للدين حنيفا. فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (الروم: ٣٠)

فالإيمان بالله، والشعور بوجود الله، فطرة مستكنة في الطبيعة الإنسانية، أصلها الروح التي هي جزء في كل تكوينه، وهي شيء من روح الله.

ولذلك لا غرابة أن تجد الإنسان يلجأ إلى الله حين ييأس من كل الأسباب الظاهرة، وحين يمسه الضر، وحين ييأس من حوله وقوته، ومن حول الناس وقوتهم. فهذا اللجوء هو هتاف تهتف به الفطرة الأنسانية من جوانب نفسه..أن يلجأ إلى الله:

"وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا أياه" (الإسراء: ٦٧).

"حتى إذا كنتم في الفلك، وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان، وظنوا أنهم أحيط بهم، دعوا الله مخلصين له الدين، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين" (يونس: ٢٢).

والإنسان مستخلف من قبل الله في الأرض على عهد الله وشرطه، لذلك فالإنسان قوة إيجابية فاعلة في هذه الأرض وليس عاملا سلبيا في نظامها. والإسلام يمد الإنسان بدوافع الحركة الإيجابية؛ اذ يعلمه أن قدر الله ينفذ فيه وفي الأرض من حوله عن طريق حركته هو ذاته:

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الرعد: ١١). "ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الانفال: ٥٣).

وأنه "يرتقي حتى يصبح قدرا من قدر الله، يحقق مشيئة الله -من خلال حركته الذاتية- في نفسه وفيمن حوله وفيما حوله. وفي هذه الحالة تتجلى على يديه مظاهر من قدرة الله -سبحانه- وليست هذه وقفا على معجزات الرسل. إنما هي درجة يرتقي إليها المسلم، ويتهيأ بها لحياة الجنة ... وما يظهر من خوارق التحول في النفس أو في الحياة الإنسانية العامة منشؤه هو هذا الارتقاء، أو هذه الصلاحية لتقمص قدر الله": (٢٠).

"ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض" (الأعراف: ٩٦).

الحياة في التصور الإسلامي

والحياة هي مجموع أنشطة الكائنات والطاقات التي خلقها الله خلال أعمارها الزمنية. وعمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها إنما يكون بإستثمار ما أودعه الله في الكائنات من طاقات استثماراً صالحا. وتوجيه ألوان النشاط البشري لإستخدام تلك الطاقات بالرفق واللطف وفق منهج الله. وبذلك يتحقق التناسق والتكامل بين أنشطة الكائنات من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد في أعمارها الزمنية، من أجل إعمار الحياة.

وفيما يلي فقرات كتبها الشهيد سيد قطب عن الحياة في التصور الإسلامي:

"الحياة ليست إلها! ليست قوة مدبرة في ذاتها تنشأ وتنشىء وفق إرادتها المستقلة! هي ليست تلقائية وجدت مصادفة وتمضي خبط عشواء! - إنما هي خليقة أنشأها الله -سبحانه- بقدر. وتمضي كذلك وفق قدر. وهي مودعة خصائصها الذاتية التي تفرقها من الموات. اعطاها هذه الخصائص الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

والذي يخرج الحي من الميت. و يخرج الميت من الحي. والذي يتوفى الأنفس حين موتها. والذي خلق الموت والحياة والذي يبدأ الخلق ثم يعيده...

كذلك الطبيعة ليست إلها. هي التي خلقت الحياة. كما أنها ليست هي التي خلقت نفسها! إنما الله -سبحانه- هو خالق كل شيء هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. هو الذي خلق الطبيعة وجعلها مناسبة لظهور الحياة، وهيأ الأرض لهذا النوع من الحياة الذي نشأ فيها. وجعل التناسق بين الطبيعة والحياة. وبين الأحياء بعضها وبعض، هو الأصل والقاعدة. وأودع في الأرض أقواتها وأرزاقها، وجعل الكون كله مسخرا ومساعدا. وهذه الموافقات التي لا تحصي ما كانت لتجيء مصادفة، وما كانت لتنشئها قوة غير واعية مريدة مدبرة حكيمة.

"كما أن الحياة صادرة عن إرادة واحدة -إرادة الله سبحانه- حادثة بقدره، كذلك هي ناشئة -بتلك الإرادة وهذا القدر -من أصل واحد .. الماء .. "وجعلنا من الماء كل شيء حي" .. "والله خلق كل دابة من ماء" أما كيف تسلسلت، وهل تطورت أم نشأت هكذا أنواعا فهو مما لم يتعرض القرآن له .. فمجال الدراسة فيه مفتوح. غير أن افتراضات العلم ذاته توحي بأنها لم تكن على النحو الذي يجزم به دارون، ذلك أن تعاون عالم النبات وعالم الحيوان، ووجودهما في وقت واحد يبدو ضروريا لبقاء الحياة على الأقل في مثل جو الأرض الذي نعرفه بتركيباته التي نعرفها. حيث يقوم النبات بفصل الأكسجين من ثاني أكسيد الكربون، وأخذ الكربون ليتغذى به، وإطلاق الأكسجين ليتنفس به الحيوان. ثم يقوم الحيوان برد هذا الجميل فيتنفس الأكسجين ويطلق ثاني اكسيد الكربون. ولو انفرد احدهما لهلك بعد استنفاد غذائه الذي لا يتجدد إلا بوجود الآخر.... ذلك إلى أن اكتشاف الجينات التي تكمن فيها الصفات الوراثية يضع عقبة أمام افتراض دارون تطور الأنواع. ثم ظاهرة تفرد الإنسان التي تواجه النظرية الآن بأكبر اعتراض!.

هذه الحياة مقدرة أقواتها في بنية الارض وفي نظام الكون... وهي حقيقة واقعة تكذب كل ادعاء آخر، وتسخر من نظريات المتشائمين والداعين إلى تحديد

النسل (نظرية مالتوس...) فهناك موافقات في كيان الحياة ذاته. وفي الظروف المحيطة بها. تجعل حقيقة تقدير الاقوات أوسع من مادة الاقوات ذاتها... وتمد محيطها إلى ما في بنية الكون من طاقات ومدخرات، وما في تكامل الأحياء من عمليات تعويض، وما في ضوابط الحياة من ضمانات للتناسق بين بعض الأحياء وبعض، وبين الأحياء جميعا والأقوات المدخرة...

"كل ما يدب على الأرض من أحياء، امم ذات تنظيمات كأمة الانسان فهي كلها من أصل واحد. وهي كلها تخضع لتنظيمات.. والخالق المدبر هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. وهو الذي أودع هذه الأمم فطرتها وضوابطها. والإنسان هو قمة هذه الدواب. وهي مسخرة له: الحيوان والطير والنحل.. ولكنه إنما يرتفع إلى مقامه هذا باحتفاظه بسبب امتيازه. وهو إتصال روحه بمصدر امتيازه. فإذا فارق هذا المقام صار أضل من الحيوان!

"كما تقوم الحياة على قاعدة النشأة من الماء. وعلى قاعدة الأمة المنظمة. كذلك تقوم على قاعدة الزوجية. التي لا تشمل الأحياء فقط. ولكنها كذلك تشمل الاشياء: "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون".. وتقدير الزوجية هذا، واشتمال الحياة على الضمانات التي تجددها وتكثرها عن طريق هذه الزوجية، وتوافر الجنسين في كل نوع بالنسبة الكافية للبقاء والتكاثر دليل على القصد والتدبير، يكرر القرآن ذكره. وهو دليل لا يواجهه المنكرون إلا بالتمحل أو الهروب في كل حال.

"الأحياء مكفولون برزق الله: "وما من دابة في الأرض على الله رزقها".. محاطون بعلم الله ورعايته: "ويعلم مستقرها ومستودعها"... خاضعة لسلطان الله: "ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها"...

"الأحياء كلهم في عبادة... "ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون"...

"هنالك عوالم أخرى من الأحياء -غير الدواب الأرض التي تشمل الأنسان-وهي عوالم أخبرنا الله بوجودها، وليس لنا من مصدر آخر للعلم بها إلا ما أخبر الله عنها، هي الملائكة والجن. ومن الجن الشياطين، وإبليس على رأس الشياطين! والإنسان يتعامل مع هذين الخلقين. ويتأثر بهما في الدنيا والآخرة.

"وقد وصف الله هذين الخلقين. وأخبرنا عن طبيعتهما. وعن علاقتهما بالإنسان. بالقدر الذي يهدي الإنسان إلى منهج التعامل القويم مع كليهما. وجعل الإيمان بالملائكة قاعدة من قواعد الإيمان لما للملائكة من علاقة بالوحي والرسالة. وإخبار الله عن وجود الجن والشياطين يجعل الاعتقاد بوجود هذا الخلق على النحو الذي وصفه الله به ضرورة إعتقادية. وإنكار وجودهم هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة وتكذيب للقرآن... معناه الكفر طبعا!

والملائكة والجن. والشياطين وإبليس، من عالم الغيب الذي أخبرنا الله به. فالتصديق بها ينشأ ابتداء من هذا الإخبار. أما إنكار المنكرين لهذين الخلقين فعجيب! إذ أنه إلام يستند؟ هل يستند مثلا إلى أن علم الناس بوسائلهم وأدواتهم لا يتمكن من رؤية هذين الخلقين أو إلى معرفتهما؟ ولكن! هل وصل علمهم إلى معرفة كل حي أو كل موجود في العالم المشهود؟ وما الذي يعلمونه من الأحياء والأشياء؟ أم أنه يستند إلى معرفة كيف يؤثر إنسان على إنسان في التنويم المغناطيسي؟ أو في التخاطر عن بعد. وهي حقائق واقعة؟.. فلماذا فقط يستبعد تأثير ملك أو شيطان في إنسان؟ ألأنه قول الله، وهم هاربون من الله؟!(٢١).

والخلاصة أن كل شأن من شؤون الحياة ينبغي أن يسير وفق منهج الله. فسياسة الإقتصاد والمال، ونظام السياسة، ونظام الأسرة، وجميع ألوان التشريعات المدنية والإدارية، يجب أن تسير وفق هذا المنهج حتى تكون الحياة إسلامية حقا. إن الضابط الوحيد للحركة البشرية، والتطورات الحيوية، حتى لا تمضي شاردة على غير هدى، هو أن تسير كل هذه الأوضاع وفق الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة.

ومع إعتبار الخبرات الإنسانية المتغيرة تبعا لمقتضيات الزمان والمكان وحاجات الناس: "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله" (الأنعام: ١٥٣).

ويسود الحياة الإنسانية -عموما- نظامان متكاملان: نظام اجتماعي ونظام معرفي، ولا تكتمل الحياة في التصور الإسلامي إلا ببيان طبيعة المجتمع الإسلامي، وطبيعة المعرفة في التصور الإسلامي. وكل واحد من هذين يحتاج إلى بحث خاص.(٢٢)

وتختلف غاية الحياة لدى الناس باختلاف مناهجهم فيها، فالذين كفروا زينت لهم الحياة الدنيا، بأعراضها الزهيدة، واهتماماتها الصغيرة. زينت لهم فوقفوا عندها لا يتجاوزونها، ولا يمدون بأبصارهم إلى شيء وراءها، ولا يعرفون قيما أخرى غير قيمها. والذي يقف عند حدود هذه الحياة الدنيا لا يمكن أن يسموا تصوره إلى تلك الاهتمامات الرفيعة التي يحفل بها المؤمن، ويمد إليها بصره في آفاقها البعيدة.. إن المؤمن قد يحتقر أعراض الحياة كلها، لا لأنه أصغر منها همة، أو أضعف منها طاقة، ولا لأنه سلبي لا ينمي الحياة ولا يرقيها.. ولكن لأنه ينظر إليها من عل -مع قيامه بالخلافة فيها وانشائه للعمران والحضارة، وعنايته بالنماء والإكثار، فينشد من حياته ما هو أكبر من هذه الأعراض وأغلى، ينشد منها أن يقر في الأرض منهجا، وأن يقود البشرية إلى ما هو أرفع وأكمل، وأن يركز راية الله فوق هامات الأرض والناس، ليتطلع اليها البشر في مكانها الرفيع، وليمدوا بأبصارهم وراء الواقع الزهيد المحدود، الذي يحيا له من لم يهبه الإيمان رفعة الهدف، وضخامة الأهتمام، وشمول النظرة(٢٣).

هذا هو الإنسان الذي يجب على منهج التربية بناءه وإعداده، للقيام بواجبات الخلافة في الأرض.

مفهوم منهج التربية في التصور الأسلامي وخصائصه

في الجزء السابق من هذا البحث استعرضنا التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، وبينا أن هذا التصور هو المصدر الذي يجب أن تنبثق منه كل مناهج الحياة ومفاهيمها، للتربية، ولغير التربية. والآن، ما مفهوم منهج التربية المنبثق من هذا التصور؟ وما الفرق بينه وبين المنهاج الأخرى؟ وما الخصائص والمقومات التي يقوم عليها هذا المنهج وتميزه عن كل المناهج الأخرى؟ هذا من ما نجيب عنه فيما يلي من هذا البحث:

مفهومات عامة للمنهج:

يعرف ابن منظور المنهج بأنه الطريق البين الواضح. "ومنهج الطريق وضحه (٢٤) والمنهاج كالمنهج، وفي التنزيل: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا" (المائدة: ٤٨). والمنهاج- كما يقول ابن كثير-: هو "الطريق الواضح السهل، والسنن والطرائق".(٢٥)

لكن تعريف المنهج بأنه الطريق السهل الواضح، وأنه السنن والطرائق هو تعريف عام يصلح لكل جوانب الحياة ومجالاتها: كالزراعة والصناعة والتجارة والتربية وغير ذلك. ومن هنا كان لا بد من السير به خطوة نحو التخصص.. نحو التربية.

ويرى معظم المتخصصين المعاصرين في المناهج وطرق التدريس، أن المنهج التربوي هو "مجموع الخبرات والأنشطة التي تقدمها المدرسة تحت إشرافها للتلاميذ بقصد إحتكاكهم بها وتفاعلهم معها، ومن نتائج هذا الإحتكاك والتفاعل يحدث تعلم أو تعديل في سلوكهم، ويؤدي هذا إلى تحقيق النمو الشامل المتكامل الذي هو الهدف الأسمى للتربية"(٢٦).

ويلاحظ على هذا التعريف أمران: الأول، أنه واسع بحيث يشمل الخبرات التربوية المختلفة، والتي عن طريقها ينتقل محتوى المنهج، كما يشمل أيضا المواد

المستخدمة، والطرق والوسائل المتبعة في عملية التدريس والتقويم. والمقررات تشمل الوحدات، والوحدة قد تكون من درس أو عدة دروس.

وهذا المفهوم للمنهج، رغم اتساعه وشموله، إلا أنه لا يصلح أن يكون مفهوما لمنهج التربية الإسلامية لأنه مفهوم عام، يصل الناس بالأرض، ويؤهلهم للإستمتاع بها، وعمارتها، والكفاح من أجلها، دون نظر إلى خالق الأرض والسماء، ومبدع الكون كله ودون ربط للإنسان بمصدر وجوده، وسبب وجوده، وغاية وجوده، ولهذا، فإن هذا المفهوم يصلح لكل المجتمعات ولكل الثقافات، فكل مجتمع يستطيع أن يصمم منهجا -وفقا لهذا المفهوم- يناسب حياته على الأرض.

والأمر مختلف تماما بالنسبة لمنهج التربية الإسلامية، فمهمة هذا المنهج الأولى والأخيرة: هي أن تصل الإنسان بالله، ليصلح حاله على الأرض وينظم حياته فيها، فيعمرها ويرقيها عن طريق الكد والكدح المستمرين، وعن طريق التحليل فيها والتركيب، واستغلال كل الطاقات والإمكانات المدركة التي منحه الله إياها. وبحيث يفعل كل هذا بينما يكون متجها -في نفس الوقت- بعقله وقلبه إلى الله. وهنا يرتبط ملكوت الأرض بملكوت السماء.

مفهوم منهج التربية في التصور الإسلامي:

ومن هنا تظهر الحاجة إلى تعريف مناسب لهذا المنهج الرباني الفريد. وهنا يمكن القول -اجتهادا-: إن منهج التربية في التصور الإسلامي هو: "نظام متكامل من الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، والخبرات والمعارف والمهارات الإنسانية المتغيرة التي تقدمها مؤسسة تربوية إسلامية إلى المتعلمين فيها. بقصد إيصالهم إلى مرتبة الكمال التي هيأهم الله لها، وبذلك يكونون قادرين على القيام بحق الخلافة في الأرض عن طريق الإسهام بإيجابية، وفاعلية في عمارتها وترقية الحياة على ظهرها، وفق منهج الله".

الخصائص التي يتميز بها هذا المفهوم:

وهذا المفهوم لمنهج التربية الإسلامية، يتميز ويتفرد بمجموعة من الخصائص أهمها ما يلي:

منهج التربية "نظام"

الخاصية الأولى هي أن منهج التربية الإسلامية "نظام"، أي أنه بمفهومه، وخصائصه، وأسس بنائه، وعناصره، يكون كلا متكاملا، كل جزء فيه يتأثر ببقية الأجزاء ويؤثر فيها.

منهج "رباني"

الخاصية الثانية: هي أن هذا المنهج، بما أنه نابع من التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، فهو منهج رباني في مصدره وغايته، لذلك فهو يزود الإنسان "المتعلم" بمجموعة الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة التي توجه عمله وإسهامه، بل وتعينه على عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، إن من الضروري أن يفهم المتعلم الحقائق الثابتة كحقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة، فبدون فهم هذه الحقائق، لا يستطيع الإنسان أن يفهم حقيقة وجوده، ولا دوره في هذا الوجود فضلا عن مصدر وجوده وغاية وجوده. (٢٧).

وخاصية الربانية التي تميز منهج التربية الإسلامية، هي نفس خاصية منهج الإسلام العام. والمراد بالربانية هنا -كما يقول الدكتوريوسف القرضاوي -أمران:

١- ربانية المصدر والمنبع.

٢- ربانية الوجهة والغاية.(٢٨).

إن أولى مقومات النظام الإسلامي أنه نظام رباني "صادر من الله للإنسان، وليس من صنع الإنسان تتلقاه الكينونة الإنسانية بجملتها من بارئها. وليست الكينونة الإنسانية هي التي تنشئه، كما تنشىء التصور الوثني، أو التصور الفلسفي -على إختلاف ما بينهما- وعمل الإنسان فيه هو تلقيه وإدراكه والتكيف به، وتطبيق مقتضياته في الحياة البشرية".(٢٩)

وإذا كان الفكر البشري لم ينشىء هذا النظام، فإن له وجودا قويا في مجاله للعمل فيه، "بيد أن عمله هو التلقي والإدراك والتكيف والتطبيق في واقع الحياة.. غير أن القاعدة المنهجية الصحيحة للتلقي.. هي هذه.. إنه ليس للفكر البشري أن يتلقى هذا التصور بمقررات سابقة، يستمدها من أي مصدر آخر، أو يستمدها من مقولاته هو نفسه، ثم يحاكم إليها هذا التصور، ويزنه بموازينها... إنما هو يتلقى موازينه ومقرراته من هذا التصور ذاته، ويتكيف به، ويستقيم على منهجه".(٣٠)

"وفي الوقت ذاته يعتبر الفكر البشري -في ميزان هذا التصور- أداة قيمة وعظيمة، يوكل إليها إدراك خصائص هذا التصور ومقوماته -مستقاة من مصدرها الإلهي- وتحكيمها في كل ما حوله من القيم والأوضاع. دون زيادة عليها من خارجها، ودون نقص كذلك منها... ويبذل منهج التربية الإسلامية لهذه الأداة العظيمة من الرعاية والعناية، لتقويمها وتسديدها وابتعاثها للعمل في كل ميدان هي مهيأة له... الشيء الكثير.(٣١)

إذن فوظيفة الأنسان في هذا النظام هي التلقي في حدود طبيعته الإنسانية، وفي حدود وظيفته. "فالإنسان محكوم أولا بطبيعته: طبيعة أنه مخلوق حادث، ليس كليا ولا مطلقا. ليس أزليا ولا أبديها، ومن ثم فإن إدراكه لا بد أن يكون محدودا بما تحده طبيعته، ثم هو محدود بوظيفته، وظيفة الخلافة في الأرض لتحقيق معنى العبودية لله فيها... ومن ثم فقد وهب من الإدراك ما يناسب هذه الخلافة بلا نقص ولا زيادة.

أما ربانية الوجهة والغاية فنعني بها -كما يقول الدكتور القرضاوي-: "أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته، فهذه غاية الإنسان ، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله وسعيه وكدحه في الحياة" (٣٢): "يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه" (الإنشقاق: ٦). "وأن إلى ربك المنتهى" (النجم: ٤٢).

وبناء على ما سبق، فإنه يترتب على كون المنهج الإسلامي منهج رباني المصدر والغاية، أنه منهج "كامل متكامل، لا يقبل تنمية ولا تكميلا، كما أنه لا يقبل "قطع غيار" من خارجه، فهو من صنعة الله، فلا يتناسق معه ما هو من صنعة عيره".(٣٣).

ووظيفة الإنسان في هذا المنهج هو تلقيه، وإدراكه، والاجتهاد في إطاره، والتكيف به، وتطبيق مقتضياته في واقع الحياة.

إن منهج التربية الإسلامية كمنهج الإسلام العام، منهج رباني في مصدره وغايته، ولذلك فهو يزود الإنسان (المتعلم) بمجموعة الحقائق والمعايير والقيم الثابتة التي توجه عمله وإسهامه، بل وتعينه على عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، فلا مراء أنه من الضروري لكل إنسان (متعلم) أن يفهم الحقائق الثابتة في الوجود: كحقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان... إلى آخره. فبدون فهم هذه الحقائق لا يستطيع الإنسان أن يفهم حقيقة وجوده، ولا دوره في هذا الوجود، فضلا عن مصدر وجوده وغايته.

ومن الضروري أن يعرف الإنسان (المتعلم) المعايير التي يرجع إليها في إقامة الجوانب المختلفة لحياته على الإرض. فالشورى معيار للسياسة ونظام الحكم، والعدالة الاجتماعية معيار للنظام الاقتصادي، والتراحم، والتكافل، والتعاون معايير لتنظيم الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الناس... وهكذا.

ومن الضروري أن يفهم الإنسان (المتعلم) مجموعة القيم الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة الإنسانية الراقية. فالعلم واستخدامه في إعمار الحياة وترقيتها (لا في خرابها)، والإحسان والدقة في العمل، والنظام، والنظافة وصدق الشعور في القول والعمل... كل هذه قيم ثابتة، لا يمكن أن يقوم نظام إنساني راق -في أي وقت- على وجه الأرض بدونها.

إن تطبيق هذا المنهج لا يحتاج الى "فلسفة"، بل إن إلحاق مصطلح "فلسفة" به يفسده تماما. "فالفلسفة" مصطلح غريب وثني الأصل، وهي جزئية ثقافية وحضارية للإنسان وللحياة تختلف تماما عن النظام الذي ينتمي إليه منهج التربية الإسلامية. "فالفلسفة جزئية في نظام "بشري" الأصل، تتأثر به وتؤثر فيه. ومنهج التربية الإسلامية جزئية في نظام "رباني" شامل لحكم الكون والحياة، فكيف يجتمعان؟!

إن الإسلام لا يتسامح -كما يقول الأستاذ سيد قطب - "أن يتلقى المسلم أصول عقيدته ولا مقومات تصوره، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه، ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه، ولا مذهب مجتمعه، ولا نظام حكمه، ولا منهج سياسته، ولا موجبات فنه وأدبه وتعبيره.. من مصادر غير إسلامية، ولا أن يتلقى في كل هذا من غير مسلم يثق في دينه وتقواه".(٣٤)

وهذا الأمر أكبر وأثقل في ميزان الله من أن يعتمد فيه على رأي شخصي. فالأمر فيه لله وللرسول، يقول الله سبحانه عن الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة: "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فاعفوا واصفحوا، حتى يأتي الله بأمره، إن الله على كل شيء قدير" (البقرة: ١٠٩).

"ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل: إن هدى الله هو الهدى، ولكن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير" (البقرة: ١٢٠).

"يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين" (آل عمران" ١٠٠).

والواقع أن الإسلام يفرق في هذا الأمر بين نوعين من العلوم: العلوم التي تتصل بتفسير النشاط الإنساني كله: كالفنون والآداب والعلوم الإنسانية عموما، فهذا يجب على المسلم ألا يتلقاها إلا على يد مسلم يوثق في علمه ودينه.

أما ما يردده بعض مفكرينا من آن إلى آخر، من أن الفنون والآداب يجب أن تدرس كفنون جميلة في حد ذاتها، دون ربطها بالعقائد والأخلاقيات، فهذا رأي مرفوض إسلاميا، لأن الإسلام لا يعترف بنظريات "العلم للعلم" و "الفن للفن". فالعلوم والفنون ما هي إلا وسائل وأدوات خلقها الله ليتعلمها الإنسان ويستخدمها في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله.

أما العلوم البحته كعلوم الكيمياء والفيزياء والأحياء وعلوم الصناعة والزراعة... إلخ فالأصل أن يسعى المجتمع المسلم لتوفير الكفايات فيها، بإعتبار تعلمها فرض كفاية، فإذا لم تتوفر الكفايات أثم المجتمع كله. وإلى أن تتوفر الكفايات في هذا الميدان فإن للمسلم أن يتلقى هذه العلوم عن المسلم وغير المسلم.

وليس معنى ما تقدم هو الدعوة إلى الإنغلاق وعدم التفكر، وعدم الإستفادة من أفكار الآخرين وتجاربهم أينما كانوا، فليس هذا من الإسلام في شيء.

وقد وضع لنا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام المبدأ الهادي في هذا السبيل حيث قال: "الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق الناس بها".

إذن فهذه دعوة إلى الإنفتاح على الفكر الإنساني، لا إلى الإنغلاق، لكنه الإنفتاح الذي ينشد الحكمة، ويزن كل شيء وفقا لمعايير وقواعد منهج الله.

منهج التوحيد

الخاصية الثالثة من خواص منهج التربية في الإسلام هي خاصية التوحيد، فالتوحيد هو المقوم الأول للنظام الإسلامي. فهو حقيقة أساسية في العقيدة الإسلامية، وبالتوحيد يتفرد النظام أو المنهج الإسلامي من بين سائر النظم والمناهج الإعتقادية والفلسفية السائدة في الأرض.

"ونبادر فنقرر أن "التوحيد" كان هو الخاصية البارزة في كل دين جاء به من عند الله رسول. كما أنه "المقوم الأول" في دين الله كله.. وأن "الإسلام"- على

إطلاقه- كان هو الدين الذي جاء به كل رسول. بما أن الدين هو إسلام الوجه لله وحده، واتباع منهج الله -وحده- في كل شؤون الحياة، والتلقي من الله -وحده- في هذه الشؤون كلها، والعبوديه لله وحده بطاعة منهجه وشريعته ونظامه، والعبادة لله وحده سواء في الشعائر التعبدية أو في نظام الحياة الواقعية" (٣٥): "وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله أنا فاعبدون" (الأنبياء: ٢٥). فالقرآن الكريم في الآية السابقة يؤكد هذه الحقيقة إجمالا. ويؤكدها تفصيلا فيما يلي:

"لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم إله غيره، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم" (الأعراف: ٥٩).

"وإلى عاد أخاهم هودا، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم..." (الأعراف: ٨٥).

"وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا، فقال لأهله: امكثوا إني آنست نارا، لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى، فما أتاها نودي: يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري" (طه: ٩-١٤).

"وإذ قال الله: يا عيسى ابن مريم، أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟! قال: سبحانك! ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم، فإنك أنت العزيز الحكيم". (المائدة: ١١٦-١١٨).

"لكن التحريفات والإنحرافات التي وقعت في تصورات أتباع الرسل، إلى جانب طغيان الجاهليات على الديانات، لم تبق في الأرض كلها من تصور ديني صحيح، إلا التصور الذي جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- وحفظ الله أصوله، فلم تمتد إليها يد التحريف، ولم تطمسها كذلك الجاهليات التي طغت على حياة الناس... ومن ثم أصبح التوحيد خاصية من خصائص هذا الدين. (٣٦).

"يقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك ألوهية وعبودية.. ألوهية يتفرد بها سبحانه، وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه... وكما يتفرد الله -سبحانه- بالألوهية، كذلك يتفرد -تبعا لهذا- بكل خصائص الألوهية... كذلك يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية، فهناك إذن وجودان متميزان: وجود الله، ووجود ما عداه من عبيد الله، والعلاقة بين الوجودين هي علاقة الخالق بالمخلوق. والإله بالعبيد...

"هذه هي القاعدة الأولى في التصور الأسلامي... ومنها تنبثق وعليها تقوم سائر القواعد الأخرى... وقيام التصور الإسلامي على هذه القاعدة الأساسية هو الذي يجعلها إحدى خصائصه". (٣٧).

فالله -سبحانه- واحد في ذاته، متفرد في كل خصائصه: "قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد" (الإخلاص).

والله -سبحانه- هو مالك كل شيء: "ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما" (المائدة: ١٧).

والله -سبحانه- هو الرازق لكل من خلق ولكل ما خلق: "يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض؟ لا إله إلا هو، فأني تؤفكون؟" (فاطر: ٣). "وكأي من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم" (العنكبوت: ٦٠).

والله -سبحانه- هو مدبر كل شيء ومصرف كل شيء، وحافظ كل شيء: "إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده" (فاطر: ٤١)... "ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره" (الروم: ٥).. "وخلق كل شيء فقدّره "تقديرا" (الفرقان: ٢).

وكل خلائق الله -سبحانه- تقر له بالعبودية والطاعة والقنوت: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض: إئتيا طوعا أو كرها، قالتا: أتينا طائعين" (فصلت: ١١). "وإن من شيء إلا يسبح بحمده" (الإسراء: ٤٤).

ولا يتم الحديث عن خاصية التوحيد إلا بالحديث عن مقتضيات هذا التوحيد. ومن مقتضيات توحيد الألوهية في التصور الإسلامي ما يأتي:

١- "إفراد الله -سبحانه- بخصائص الألوهية في تصريف حياة البشر، كإفراد -سبحانه- بخصائص الألوهية في اعتقادهم وتصورهم، وفي ضمائرهم وشعائرهم على السواء... فيتوجه لله وحده بالشعائر التعبدية والتقوى.

٢- ومن مقتضيات التوحيد أيضا أن "يعتقد المسلم أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله، وأن لا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالحياة وبالأحياء وبين الإنسان وبني جنسه إلا الله.. فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع، ومنهج الحياة، ونظام المعيشة، وقواعد الإرتباطات، وميزان القيم والإعتبارات.. سواء.." (٣٨).

٣- أما الأثر المتفرد الذي ينشئه النظام الإسلامي في ضمير الإنسان المسلم والمجتمع المسلم عن طريق خاصية "التوحيد" فهو تحرير الإنسان... أو بتعبير آخر.. ميلاد الإنسان..." إن المنهج الإسلامي -بهذه الخاصية- يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ، "الإنسان" بمعناه الكامل لا يوجد على الأرض إلا يوم تتحرر رقبته، وتحرر حياته، من سلطان العباد -في أية صورة من الصور- كما يتحرر ضميره واعتقاده من هذا السلطان سواء..." (٣٩).

"إن الناس في جميع الأنظمة التي يتولى التشريع والحاكمية فيها البشر... يقعون في عبودية العباد.. وفي الإسلام -وحده- يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم لله وحده" (٤٠).

وهذه هي الهدية التي أهداها الله لعباده في الأرض عن طريق التوحيد. ويستطيع أصحاب عقيدة التوحيد أن يهدوها -بدورهم- للبشرية كلها. إن أصحاب هذه العقيدة، لا يملكون أن يقدموا للبشرية اليوم أمجادا علمية، ولا فتوحات حضارية يبلغ من ضخامتها أن تتفوق تفوقا ساحقا على كل ما لدى البشرية منها.. ولكنهم يملكون أن يقدموا لها شيئا آخر. شيئا أعظم من كل الأمجاد العلمية، والفتوحات الحضارية، إنهم يقدمون "تحرير الإنسان" بل "ميلاد الإنسان".(٤١).

أنه منهج "عالمي"

الخاصية الرابعة من خواص منهج التربية في الإسلام هي العالمية. وعالمية منهج التربية في التصور الإسلامي تعني أنه منهج يحمل من الثوابت ما يحفظ الإنسان والمجتمع من التحلل والإنهيار، كما أنه يحمل من التغيرات ما يلبي التطور والترقي وفقا لتغير الزمان والمكان وحاجات الناس في كل زمان ومكان، وعالمية منهج التربية نابعة من عالمية الإسلام نفسه. فالإسلام عقيدة، وشريعة لحكم الحياة، ولما كانت هذه العقيدة ربانية المصدر والغاية، وأنسانية الطابع، وخاتمة الشرائع السماوية، فهي عالمية. ومعنى عالمية الإسلام أنه دعوة لجميع البشر: دعوة ليست عنصرية، ولا قومية، ولا محدودة بحدود جغرافية أو إقليمية أو وقتية.

يقول الأستاذ سيد قطب: "إن الإسلام تمشيا مع طبيعته العالمية، فقد إحتضن الرسالات والديانات كلها من قبله، وقدر مع وحدة الإله وحدة العقيدة، ووحدة الدين الذي أرسل الله به رسله جميعاً، فكل الرسل جاءوا بدين واحد، هو الإسلام، اسلام القلب لله وحده بلا شريك، هذا هو أساس العقيدة الذي لا يتبدل. أما التشريع الذي ينظم حياة الجماعة فهو الذي يتطور في الرسالات الإلهية على أيدي الرسل، تبعا

لمصلحة البشرية ودرجة نموها، وتصور إدراكها... حتى إذا جاء الإسلام في صورته النهائية التي جاء عليها في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، كان قد احتضن الفكرة الأساسية في دين الله الواحد، واستبقى الصالح من المبادىء والتشريعات والنظم في الرسالات السابقة وأكمل الناقص منها وأتمه (٤٢): "اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا" (المائدة: ٣).

إن رسالة الإسلام النهائية الخاتمة التي تمثلت في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ليست رسالة للعرب، ولا لجنس دون غيره، من أجناس البشر، فإذا كانت الصورة التي نزل بها الإسلام على موسى كانت خاصة ببني إسرائيل، وإذا كانت الصورة التي نزل بها الإسلام على عيسى "لهداية خراف بني إسرائيل الضالة"، فإن الإسلام في الصورة الخاتمة التي نزل بها القرآن الكريم، وشرحت في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما جاءت لهداية البشرية جميعاً وفي كافة انحاء الأرض.(٤٣).

فالإسلام رسالة عالمية، وشريعته التي يستمد منها الناس منهج حياتهم هي شريعة كونية، والنصوص في ذلك واضحة وحاسمة، فالقرآن هو آيات الله وكلمته للإنسانية جمعاء: "إن هو إلا ذكر للعالمين" (التكوير: ٣٧) ومحمد صلى الله عليه وسلم هو رسول الله للناس كافة: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا" (سبأ: ٢٨)، وقد أرسل بالإسلام رحمة للناس جميعا: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (الأنبياء: ١٠٧).

وكل إنسان -وإن لم يكن مسلما -يملك أن يعيش في ربوع الأرض الإسلامية، مكفول الحرية في العقيدة والعبادة، مكفول الدم والرزق، والعمل، ما دام خاضعا للقوانين التي تنظم حياة الجماعة، شأنه في ذلك شأن المسلمين في هذه الأرض.

إن كل دولة غيرمسلمة لها الحق في أن تتعاقد وتتعاهد مع الدولة الإسلامية، على عمارة الأرض وإصالحها، أو على السلم والمهادنة، وهي واثقة أن عهدها محفوظ ما وفت هي بعهدها ووعدها ولم تنقص منه شيئا.

وهكذا، يمكن القول بأن الإسلام -عقيدة ونظاما- هو الدين الوحيد الذي يمكن أن يوصف بأنه عالمي، وهو الدين الوحيد الجدير بعالم حر، عالم واحد، تنعم فيه البشرية بالأمن والسلام والإستقرار.

إن منهج التربية الإسلامية إذن هو منهج تربية "الإنسان".. الإنسان الصالح الذي يستطيع أن يعيش في كل مكان.. وليس فقط "المواطن" المحصور في حدود "المواطنة الضيقة". وتربية الإنسان ليس فيها بالطبع إغفال لتربية المواطن، ولكنها أشمل وأكمل. فالحقيقة أنه لا خوف أبدا على المواطن من الإنسان، ولكن الخوف كل الخوف على الإنسان من المواطن الذي انحصر فكره وانتماؤه داخل الحدود الجغرافية لوطنه.

إن ما يحدث بين "الأوطان" العربية الآن من قطيعة وتنازع وفشل، وما يحدث بينها وبين "الأوطان" الإسلامية الأخرى، ما هو إلا نتيجة من نتائج الالحاح على "المواطنة" وتربية الولاءات الضيقة المرتبطة برباط اللحم والدم والطين، لا برباط العقيدة والمنهج والفكرة.

إننا في أمس الحاجة إلى تنمية النظرة "الإنسانية العالمية الشاملة" في التعليم وتطوير المفهوم "الإنساني" في التربية. وهذا المفهوم لا تستطيع "فلسفة" أو "أيديولوجية" مرتبطة بمكان وزمان معينين تنميته وتطويره.(٤٢).

إن منهج الإسلام وحده، دون مناهج الأرض كلها، هو الذي يستطيع تحقيق مفهوم "الإنسانية" في نفوس الناشئة. فتحقيق إنسانية الإنسان يتمشى مع إنسانية المنهج الإسلامي وعالميته التي تقررت في القرآن في سورة هي من أوائل السور المكية، وهي سورة التكوير، في قوله تعالى: "إن هو إلا ذكر للعالمين". وتقررت في

خطاب المولى -سبحانه- لنبيه- صلى الله عليه وسلم- في قوله: "وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين" (الأنبياء: ١٠٧).

لقد جنت الإنسانية ثمار التأكيد على "المواطنة الضيقة" في صورة صراعات دولية، وحروب عالمية وإقليمية، وإستعمار واحتلال لأراضي الآخرين، واغتصاب لحقوقهم، وتسخير لجهودهم في خدمة غيرهم، وإذلال لآدميتهم وإنسانيتهم.

إننا الآن في زمن جديد تماما، فنحن نعيش العصر النووي، عصر القنابل الذرية، والإشعاع النووي القاتل، والشتاء الذري، والصقيع النووني الذي يمكن أن يحدث نتيجة حجب الغبار الذري لأشعة الشمس عن الأرض، فيبدأ عصر الجليد والظلام الذي تتجمد فيه الحياة البشرية إلى ما شاء الله.

إننا نعيش في عصر سبقت قوة الإنسان يقظة ضميره، عصر لا يملك الإنسان فيه القدرة -كما قال "اينشتين" على إدارة الصراعات والحروب العالمية أو الإقليمية، دون أن يمتد خطرها ودمارها إلى ما حولها (٤٥). نحن -إذن- في عصر نحتاج فيه إلى تنمية وتطوير مفهوم "الإنسانية" بمعناه العالمي الشامل، لا إلى تنمية مفهوم "المواطنة" بمعناه الضيق المحدود بحدود المكان والزمان.

فالوطنية الضيقة وتربية المواطن المحدود في قيمه وولائه بين حدود دولته، أثمر كثيرا من الشرور التي نعاني منها الآن. فمشكلة الحرب والسلام التي يتوقف عليها مصير البشرية كله، تشتد وطأتها ويزداد غليانها كل يوم، حتى وصلت إلى مرحلة تنذر بالخطر الحقيقي، وما ذلك إلا لأنها تدار بيد "مواطنين" يريدون تسخير خيرات العالم كله لصالح أوطانهم ومواطنيهم على حساب الآخرين.

وحتى بعد أن أظهرت نظرية إستحالة الحروب النووية الساحقة الماحقة لكل شيء على وجه الأرض، فقد بدأ الصراع يتحول من الحرب والقتال إلى صراع النظم والنماذج الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية. وبمعنى آخر، فالصراع قد تحول من ميادين القتال إلى بيوت الناس، ومدارسهم، وعقولهم.

ولا نتجاوز إذا قلنا إنّه لا عاصم لنا اليوم من الإنقياد إلى أحد أطراف الصراع والسير ذيلا له، إلا بالتمسك بالمنهج الإسلامي الذي كرم الإنسان، وحفظ له شخصيته المستقلة حين قال صلى الله عليه وسلم: "لا يكن أحدكم إمعة ، يقول: إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا".

إن الولاء للمواطن وللوطنية الضيقة وليس "للإنسان" في كل مكان، هو الذي يعرض "السفينة العالمية" -إذا جاز هذا التشبيه -للخطر. فبعد ثورة الإتصالات وما ترتب عليها من تفجر معرفي، أصبحت الكرة الأرضية كسفينة واحدة تتعرض لمخاطر جسيمة في عرض البحر، فيها من يشكو من التخمة، وفيها من يشكو من الجوع إلى حد الهلاك.

فيها من يعانون وفرة الإنتاج فماذا يصنعون وكيف يخزنون الفائض الهائل من الحبوب واللحوم والزبد والجبن والخضر؟! وفيها المحاصرون الذين يموتون جوعا، ويرجون فتوى تجيز لهم أكل الميتة ولحوم البشر! فيها الأغنياء الدائنون الذين يفرضون شروطهم، ويشرعون سياطهم، وفيها الفقراء المدينون الذين يخضعون لكل عمليات الإبتزاز والإستغلال والظلم، فيها من يصنع سلاح الدمار ويبيعه ليزداد ثراء، وفيها من يشتري هذا السلاح ليقاتل به حتى الموت.

وهكذا... تحدق الأخطار "بالسفينة العالمية" من كل جانب بسبب الأنانية والشره، والظلم، والطائفية، والعنصرية، والإستغلال بسبب الحضور القوي "للمواطن"، والغياب المستمر "للإنسان".

إنّ الإسلام هو المنهج العالمي الوحيد الذي يستطيع أن يحكم نظام الكون، وهو وحده بين كل مناهج الأرض، الذي لا يفرق بين البشر على أساس طبقي أو عنصري أو طائفي، وإنما يتوجه إلى قلوبهم وضمائرهم مباشرة، حيث يكمن "الإنسان" الجوهر الفذ، الذي تتكون منه الإنسانية، وهو بذلك الملجأ الوحيد الباقي لإنقاذ البشرية من الهول الرهيب المحدق بها.

بناء على ما سبق، فإننا -فيما أرى- لا نحتاج إلى تربية "المواطن الصالح". "فالمواطن الصالح" عادل، مجد، أمين، متواضع، قانع.. في موطنه، لكنه عادة ما يتحول إلى ظالم، مستبد، غاصب، شره... في غير موطنه. وقد رأينا صور ذلك، وما زلنا نراها كل يوم، ابتداء من مصر وإفريقيا والشام وفيتنام إلى أفغانستان ولبنان وإيران، وفي كل موقع من مواقع الإستعمار القديمة منها والحديثة.

وخلاصة القول إن المدرسة الإنسانية في التربية قديمة قدم الإنسان فبينما كل مناهج الأرض تلتقي -كما يقول الأستاذ محمد قطب- على أن هدف التربية هو إعداد "المواطن الصالح"، نجد أن الإسلام يسعى لتحقيق هدف أشمل وأعمق وهو إعداد "الإنسان الصالح"، الإنسان على إطلاقه، بمعناه الإنساني الشامل، الإنسان بجوهره الكامن في أعماقه، الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث هو مواطن في هذه البقعة من الإرض أو في ذلك المكان".

والإنسان الذي يهدف الإسلام إلى تربيته هو الإنسان الذي يستمد منهج حياته وشعوره وسلوكه من منهج الله، وهو بالجملة الإنسان الذي يفي بشروط الخلافة التي فضله به خالقه على كثير ممن خلق، فينشط في عمارة الأرض وفق منهج الله، مستغلا كل الطاقات وقوى الإدراك الممنوحة له.

منهج "ثابت"

الخاصية الخامسة من خواص منهج التربية في الإسلام هي الثبات. ويسمي الأستاذ سيد قطب هذه الخاصية، خاصية "الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت". فبما أن النظام الإسلامي نظام رباني، قائم على التوحيد، وظيفة الإنسان فيه هي التلقي والإستجابة والتكيف والتطبيق في واقع الحياة، وبما أنه ليس نتاج فكر بشري وأنه هبة من خالق الإنسان للإنسان... بما أنه كل ذلك، فهو يتميز بأنه نظام يقوم على "الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت".

فخاصية الثبات تنشأ عنها خاصية أخرى... هي خاصية الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت. فبما أن النظام الإسلامي ليس نتاج فكر بشري وأنه هبة من خالق الإنسان للإنسان...." فهو يتميز بأنه نظام يقوم على "الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت". فهذا النظام لا يقتضي "تجميد" حركة الفكر والحياة. ولكنه يقتضي السماح لها بالحركة -بل دفعها إلى الحركة- ولكن داخل هذا الإطار الثابت، وحول هذا المحور الثابت. (٤٦).

فهناك "ثبات" في "مقومات" النظام الإسلامي الأساسية، و "قيمه" الذاتية، فهذه المقومات والقيم لا تتغير بتغير "ظواهر الحياة الواقعية"، و "أشكالها" العلمية. فالتغير في ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع العملية يظل محكوما بالمقومات والقيم الثابتة لهذا النظام. وهذه الخاصية، وهي خاصية الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت، هي طابع الصنعة الإلهية في الكون كله.

وعلى ذلك يرى الإسلام أن الحياة الإنسانية -كجزء من الكون الكبير- ليست كلها ثابتة، وليست كلها متغيرة، بل فيها جانب ثابت لا ينبغي أن يتغير. فإذا تغيرتختل الحياة البشرية ويسودها الإضطراب. وفيها جانب متغير لا ينبغي أن يبقى جامدا على حاله دائما، لأنه إذا تجمد وبقي على حاله، تجمدت الحياة وتوقفت عن النمو.

ومن الجوانب الثابتة التي تمثل "المحور الثابت" الذي يدور عليه المنهج الإسلامي: كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية: كحقيقة وجود الله، وسرمديته، ووحدانيته وقدرته، وتدبيره لأمر الخلق؛ وحقيقة أن الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، شرط لصحة الأعمال وقبولها. وحقيقة أن الدين عند الله الإسلام، وأن الإسلام معناه إفراد الله بالألوهية وكل خصائصها، والإستسلام لمشيئته، والرضى بالتحاكم إلى أمره ومنهجه وشريعته؛ وحقيقة أن الإنسان مخلوق مكرم على سائر المخلوقات في الأرض، وأنه مستخلف من الله

فيها، مسخر له كل ما فيها، ومن ثم فليس فيها ما يعلو قيمة الإنسان، أو يمكن أن تهدر بسببه قيمة الإنسان؛ وحقيقة أن الناس جميعا من أصل واحد، ومن ثمن فهم متساوون، وأن القيمة الوحيدة التي يتفاضلون بها -فيما بينهم- هي التقوى والعمل الصالح، ولا قيمة -إذن- لمال أو جنس أو طبقة أو غير ذلك؛ وحقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي عبادة الله، وأن وظيفة الإنسان هي القيام بحق الخلافة في الأرض، أي عمارتها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله؛ وحقيقة أن الدنيا دار ابتلاء وعمل، وأن الآخرة دار حساب وجزاء، لكن تبقى القيمة الثابتة للإنسان وهي أنه خليفة الله في الأرض لعمارتها وترقيتها وفق المنهج المرسوم، فهو قد يزرع الأرض بالفأس والمحراث، لأن الضرورات وأوضاع الحياة تتطلب ذلك، وبذلك يفي بشروط الخلافة. وتتطور الأوضاع ، فيرى أن شروط الخلافة تتطلب استخدام الميكنة الزراعية، وتتطور الأوضاع فيرى أن من الضروري تفجير الذرة وإرسال الأقمار الصناعية لكشف طبيعة الغلاف الجوي للأرض... وهكذا تتغير صور الخلافة في الأرض، ولكن يبقى مفهومها الثابت على كل حال، وهو ممارسة الإنسان لحقه في عمارة الأرض، وفق منهج الله، وأن لا يعلو شيء في هذه الأرض على الإنسان، وأن لا تهدر قيمته من أجل تفجير الذرة أو صنع الأقمار الصناعية أو زيادة الإنتاج؛ لأن الإنسان هو سيد كل شيء على الأرض، فلو اهدرت قيمته فلن ينتج شيئا ذا قيمة على الإطلاق: "ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن" (المؤمنون: ٧١).

أما الجوانب المتغيرة، فهي الأوضاع والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وكل ما شابه ذلك. فهذه الأوضاع تتغير على الدوام بحكم فاعلية الإنسان في الأرض واستخلاف الله له فيها، وبحكم تفاعل عقله الدائم مع الكون المادي وما ينتج عن ذلك من تغير في الإوضاع الاقتصادية والاجتماعية والساسية والتربوية.

وهكذا يرى الإسلام "أن التغير لا ينبغي أن يكون منفلتا من كل قيد، وإنما تحكمه -في تغيره- القيم الثابتة أو الجوانب الثابتة في حياة الإنسان، فتضبط منطلقه في الأرض دون إن توقف حركته أو تعوقها. وتمنع عن حياته الخلل والإضطراب. وأن الشريعة الربانية قد روعي فيها -من لدن منزلها سبحانه- أن تستجيب للجانبين معا على نحو معجز، ففي الجوانب الثابتة تعطي الشريعة تفصيلات ثابتة غير قابلة للتغير. وفي الجوانب المتغيرة تعطي أصولا عامة ثابتة، وتترك للعقل البشري المؤمن أن يجتهد بما يراه محققا للمصلحة - في المصالح المرسلة التي لم ينزل فيها نص -بحيث لا يتخطى تلك الأصول الثابتة ولا يصطدم معها، وهذا الذي يعطي تلك الشريعة مرونتها وصلاحيتها لجميع الأجيال إلى قيام الساعة". (٤٧)

والأمر الآن على خلاف ذلك في أوربا بصفة عامة، وفي أمريكا بصفة خاصة، فإن ما أصاب الفكر الأمريكي والأوروبي خاصة بعد ظهور نظرية دارون في النشوء والأرتقاء، قد وضع الحياة الأمريكية والأوربية كلها -بجانبيها الثابت والمتغير معا- على خط التغير، الذي يدعونه التطور. وقد أدى هذا "إلى انفلات البشرية كلها إلى الفوضى الهائلة التي تعيشها اليوم بدعوى أن التطور العلمي والمادي قمين بأن يغير الحياة كلها من ألفها إلى يائها، ولا يترك فيها شيئا ثابتا على الإطلاق!"... وقد نشأ عن هذا ما يسمى في أوربا وأمريكا الآن "صراع الأجيال". (٤٨)

"فما دامت الحياة كلها موضوعة على خط التغير، فأني للأجيال أن تلتقي على أمر واحد من أمور الحياة، والزمن "المتطور" قد فصل بين جيل وجيل وإلى غير لقاء؟ فإذا تواجه جيلان -في أي أمر- فهي مواجهة الصراع لا مواجهة الهدنة ولا مواجهة الإتفاق؟. (٤٩)

أما المجتمع الإسلامي الذي يطبق منهج الله ويسير وفق شريعته، فإنه لا يعرف ظاهرة "صراع الأجيال"، ولكنه يعرف جيدا ظاهرة "اختلاف الأجيال". وقد

أدرك ذلك عمر رضي الله عنه ببصيرته النافذة حين قال: "أحسنوا تربية أولادكم فقد خلقوا لجيل غير جيلكم". وكان يرمي من وراء ذلك إلى ضرورة تنويع وتغيير بعض طرق التربية وأساليبها بما يتفق مع الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتغيرة. لكن ذلك كله لا بد وأن يكون مضبوطا بالقيم الثابتة لكي لا يجرفهم التغير فيحيدوا عن سواء السبيل.

إن صور الحياة -كما يراها الإسلام- تتغير، ولا بد أن تتغير وتتطور، ولكن ينبغي أن تظل -في تغيرها وتطورها- محكومة بمنهج الله المنزل أصلا لكي يواكب نمو الحياة الدائم، ويضبط منطلقه فلا يضل عن الطريق.

إن راكب الجمل، قد تتغير حياته فيركب السيارة أو الطائرة أو الصاروخ، لكنه يظل في كل الأحوال موصول القلب بالله، شاعرا بفضله عليه في وصوله إلى هذه الدرجة من التقدم. ويقول وهو يصعد الصاروخ: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون" (الزخرف: ١٣-١٤).

وقد تتغيرحياة الراعي أو الزارع البدائي إلى وضع يستخدم فيه أحدث وسائل التقانة في الرعي والزراعة، وقد ينشىء صناعة حديثة معتمدا على إنتاجه، ولكنه لا يغش ولا يسرق، ولا يحتكر لأن الله حرم هذا عليه.

وقد تتعلم الفتاة وتصل إلى أعلى مراتب التربية، وتنال أسمى الدرجات العلمية، لكنها لا ترفض قوامة الرجل -لأن القوامة لم تعط للرجل بحكم الشهادات التي يحصل عليها دون المرأة. "وإنما سببها فروق فطرية أودعها الله في فطرة كل من الرجل والمرأة لتستقيم الحياة داخل الأسرة، وداخل المجتمع على وجهها الصحيح".(٥٠)

وهكذا، تتغير صور الحياة في الأرض، ولكن يظل البناء الرئيسي للفرد والأسرة والمجتمع لا يتغير وهو تطبيق منهج الله في واقع الأرض وفي كل صورة من صور الحياة.

منهج "شامل"

والشمول هو الخاصية السادسة من خصائص المنهج الإسلامي العام وبالتالي منهج التربية. وهي خاصية نابعة من الخاصية الأولى لهذا المنهج، وهي أنه رباني، من صنع الله وليس من صنع البشر، فالشمول هو طابع الصنعة الإلهية.(٥١)

وللشمول صور ثلاث: أولى الصور وأكبرها "رد الوجود كله.. بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقة فيه، وكل تحود وكل تغير وكل تطور، والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه... إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة... فالله سبحانه هو الذي أنشأ هذا الكون ابتداء وهو الذي يحدث فيه بمشيئته كل تغيّر جديد وكل انبثاق وليد... وهذه هي حقيقة التوحيد الكبرى التي هي المقوم الأول للتصور الإسلامي".(٥٢)

وهكذا يتمثل الشمول هنا في رد كل شيء في هذا الكون إلى الله، وشمول إرادته وتدبيره وهيمنته وسلطانه لكل شيء. ويرسم القرآن الكريم هذه الخاصية في كثير من الآيات، هذه بعضها:

"إنا كل شيء خلقناه بقدر" (القمر: ٤٩).

"وخلق كل شيء فقدره تقديرا" (الفرقان: ٢).

"وكل شيء عنده بمقدار" (الرعد: ٨).

"إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون" (النمل: ٤٠).

"إن ربكم الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين" (الأعراف: ٥٤).

والصورة الثانية من صور خاصية الشمول في المنهج الإسلامي، هي أن النظام الإسلامي يتناول الحقائق الكلية كلها: حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة العبودية، وحقيقة الإنسانية -ويربط بين مجموع تلك الحقائق، من

جميع جوانبها، في تصور واحد منطقي فطري شامل، يتعامل مع بديهة الإنسان وفكره ووجدانه، ومع مجموع الكينونة البشرية في كل متكامل.

"وهكذا تتكون من مجموعة الحقائق التي يتناولها هذا التصور في شمول وسعة ودقة وتفصيل، صورة كاملة شاملة وتفسير جامع ومفصل، لا يحتاج إلى إضافة من مصدر آخر، بل لا يقبل إضافة من مصدر آخر، لأنّه أوسع وأشمل، وأدق وأعمق، وأكثر تناسقا وتكاملا من كل مصدر آخر..."(٥٣).

ويقول الأستاذ سيد قطب: "ولقد وقع الفساد في التصور الإسلامي، ووقع التعقيد والتخليط حينما شاء جماعة ممن عرفوا في التاريخ الإسلامي باسم "فلاسفة الإسلام" أن يستعيروا بعض التصورات الفلسفية الإغريقية، وبعض المصطلحات -وبخاصة من أرسطو وأفلوطين وبعض اللاهوتيين المسيحيين- ويدخلوها في جسم "التصور الأسلامي!".

"إن هذا التصور من الشمول والسعة، ومن العمق والدقة، ومن الأصالة والتناسق بحيث يرفض كل عنصر غريب عليه، ولو كان هذا العنصر "اصطلاحا" تعبيريا من الاصطلاحات التي تقتضيها أزياء التفكير الأجنبية. فكل اصطلاح له تاريخ معين، وله إيحاءات معينة مستمدة من ذلك التاريخ، ولا يمكن تجريده من هذه الملابسات، والزج به في مجال جديد، منقطع عن تاريخه. وللتصور الإسلامي اصطلاحاته الخاصة المتفقه في طبيعة اشتقاقها اللغوي، وفي ملابساتها التاريخية والموضوعية، مع طبيعته وايحاءاته... وهذه ظاهرة دقيقة، تحتاج إلى حس لطيف يدرك مقتضيات هذا التصور في الشعور، ومقتضياته كذلك في التعبير" (٥٤).

ولا شك أن القرآن مليء بالنصوص المتنوعة التي تكون قاعدة كاملة شاملة للتصور الإسلامي المستقل المستمد من المصدر الرباني المضبوط والمستغني عن كل مصدر جزئي أو ظني للمعرفة.

والصورة الثالثة من صور الشمول، هي أن المنهج الإسلامي يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها: وبكل أشواقها، وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها.

ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها، وتتوجه إليها بكل شيء، ترجوها وتخشاها، كما يردها إلى مصدر واحد تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها وقيمها وموازينها، وشرائعها وقوانينها، وذلك لأن تلك الجهة، أو ذلك المصدر هو خالق كل شيء، ومالك كل شيء ومدبر كل شيء"(٥٥).

وهكذا تتجه الكينونة الإنسانية في كل فكرها وشعورها وسلوكها إلى جهة واحدة مهما اختلفت السبل والطرق.

"والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو تصبح في خير حالاتها، لأنها تكون حينئذٍ في حالة "الوحدة" التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها:

- فالوحدة هي حقيقة الخالق سبحانه
- والوحدة هي حقيقة هذا الكون، على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال.
- والوحدة هي حقيقة الحياة، على تنوع الأجناس والأنواع.
- والوحدة هي حقيقة الإنسان، على تنوع الأفراد والاستعدادات.
- والوحدة هي غاية الوجود الإنساني -وهي العبادة- على تنوع حالات العبادة وهيئاتها.

وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود (فإنه يصل حتما إلى الوحدة).(٥٦)

إن من أبرز سمات الإسلام أنه منهج عبادة. لكن العبادة في هذا المنهج ليست مقصورة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة وحج... إلى آخره، وإنما يتميز مفهوم العبادة في الإسلام بأنه أعمق من هذا بكثير(٥٧). إن العبادة هي العبودية لله وحده والتلقي من الله وحده في أمور الدنيا والآخرة. ثم هي الصلة الدائمة بالله في كل الأحوال.

فالعبادة في الإسلام تستغرق حياة الإنسان بكاملها. وهي تتمثل في أمرين رئيسيين:

الأمر الأول، وهو الاعتراف بوجود إله واحد يستحق أن يحمد على كل شيء والأمر الثاني، هو الأخذ بالسنن الإلهية التي يسير الكون بموجبها. فالله سبحانه وتعالى جعل الإنسان خليفته في هذه الأرض. والمؤمن مطالب بأن يأخذ بالأسباب التي تعينه على عمارة الأرض واستغلال ما أودع الله فيها من ثروات واطاقات (٥٨) وفق منهج الله.

والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة كلها. إنها لا تقتصر على اللحظات القصيرة التي تشغلها مناسك العبادة؛ فليست مناسك التعبد إلا مجرد مفاتيح للعبادة، أو "محطات")٥٩) يقف عندها السائرون في الطريق يتزودون بالزاد، وليست هذه المفاتيح أو المحطات هي كل المقصود في قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (الذاريات: ٥٦). وإلا فما قيمة لحظات صغيرة عابرة في صفحة النفس وفي صفحة الكون لا تكاد تترك أثرا.

"إن الإسلام يوسع مفهوم العبادة حتى تشمل كل الحياة. كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة. وكل عمل يتركه الإنسان تقربا لله واحتسابا فهو عبادة. وكل شعور نظيف في باطن النفس فهو عبادة. وكل امتناع عن شعور هابط من أجل مرضاة الله فهو عبادة، وكل ذكر لله في الليل والنهار فهو عبادة، ومن ثم تشمل العبادة الحياة، ويصبح الإنسان عابدا لله حيثما توجه إلى الله.(٦٠)

ويرجع مفهوم العبادة هذا في الإسلام إلى الصورة الثالثة من خاصية الشمول. ذلك أن من مظاهر التجمع في الكينونة الإنسانية -كما يقول الأستاذ سيد قطب- "أن يصبح النشاط الإنساني كله حركة واحدة، متجه إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني...العبادة... العبادة التي تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده في كل ما ينهض به من شؤون الخلافة.

"وهذا التجمع النفسي والحركي هو ميزة الإسلام الكبرى بما أنه يتناول بالتفسير كل الحقائق التي تواجه النفس البشرية في الكون كله. ويتناول بالتوجيه كل جوانب النشاط الإنساني.

ففي الإسلام -وحده- يملك الإنسان أن يعيش لدينه وهو يعيش لآخرته، وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه، وأن يحقق كماله الإنساني الذي يطلبه الدين، في مزاولة نشاطه اليومي في خلافة الأرض، وفي تدبير أمر الرزق. ولا يتطلب منه هذا إلا أمرا واحدا: أن يخلص العبودية لله في الشعائر التعبدية وفي الحركة العملية على السواء. أن يتوجه إلى تلك الجهة الواحدة بكل حركة وكل خالجة، وكل عمل وكل نية، وكل نشاط وكل اتجاه، مع التأكد من أنه لا يتجاوز دائرة الحلال الواسعة، التي تشمل كل طيبات الحياة، فالله خلق الإنسان بكل طاقاته لتنشط كلها، وتعمل كلها وتؤدي دورها... ومن خلال عمل هذه الطاقات مجتمعة، يحقق الإنسان غاية وجوده، في راحة ويسر، وفي طمأنينة وسلام. وفي حرية كاملة منشؤها العبودية لله وحده".

"وبهذه الخاصية صلح الإسلام أن يكون منهج حياة شاملا متكاملا، منهجا يشتمل الاعتقاد في الضمير، والتنظيم في الحياة - بدون تعارض بينهما- بل في ترابط وتداخل يعز فصله، لأنه حزمة واحدة في طبيعة هذا الدين، ولأن فصله هو تمزيق وإفساد لهذا الدين".

"إن تقسيم النشاط الإنساني إلى "عبادات" و "معاملات" مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة "الفقه". ومع أنه كان المقصود به -في أول الأمر- مجرد التقسيم "الفني" الذي هو طابع التأليف العلمي إلا أنه -مع الأسف -أنشأ فيما بعد أثارا سيئة في التصور "تبعته -بعد فترة-آثارٌ سيئة في الحياة الإسلامية كلها. إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة "العبادة" إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي تناول "فقه العبادات". بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس

إلى النوع الثاني من النشاط الذي تناوله "فقه المعاملات"! وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه. فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي".

وليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة. أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف. والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة أولا وأخيرا".(٦١)

إن منهج الإسلام في التربية، ونظام الحكم، ونظام الاقتصاد، والتشريعات الجنائية، والتشريعات المدنية، ونظام الأسرة، وسائر التشريعات التي يحتويها هذا المنهج لا تهدف إلا إلى غاية واحدة، وهي تحقيق معنى "العبادة" وفق هذا المنهج.

إن تقسيم النشاط الإنساني إلى "عبادات" و "معاملات"، جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا "مسلمين" إذا هم أدوا نشاط "العبادات" من صلاة وزكاة، وصوم، ،حج.. إلى آخره، وفق أحكام الإسلام، بينما هم يزاولون كل نشاط "المعاملات" وفق منهج آخر، فرنسيا كان أم أمريكيا، أو روسيا، "وهذا وهم كبير، فالإسلام وحدة لا تنقصم، وكل من يفصمه إلى شطرين -على هذا النحو- فإنما يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر، يخرج من هذا الدين.."(٦٢)

وبهذا فإن العبادة في الإسلام ليست مجرد إقامة الشعائر إنما العبادة هي الحياة. فالحياة كلها خاضعة لشريعة الله. والإنسان في الحياة عابد طالما أنه متجه بكل نشاطه إلى الله. مهما كان نوع العمل أو النشاط الخير. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار" (رواه الشيخان، والترمذي، والنسائي). وعن أنس رضي الله عنه قال: كنا مع النبي (ص) في سفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلا في يوم حار، أكثرنا ظلا صاحب الكساء، فمنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله" (أخرجه الستة).

إن العبادة بهذا المعنى هي ما فهمه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حين رأى رجلا يظهر النسك والتماوت، فخفقه بالدرة، وقال له: "لا تمت علينا ديننا أماتك الله". (٦٣).

وبهذا المعنى الشامل تصبح العبادة هي الصلة الدائمة بين المسلم وربه، وتصبح هي التربية الدائمة للإنسان: جسمه وعقله ووجدانه.

وإذا كان الشمول والتكامل من خصائص الصنعة الإلهية، فهما إذن من خصائص منهج التربية الإسلامية، فالمنهج هو الجانب التطبيقي للأصول التربوية. وبذلك فهو ليس غاية في ذاته، ولكنه وسيلة لتحقيق غاية، وهي تنمية شخصية الإنسان كله: جسمه وعقله ووجدانه تنمية شاملة متكاملة، وهذا يقتضي أن يكون المنهج المعد لهذا الغرض شاملا متكاملا في خبراته وجميع أوجه مناشطه.

ولا يعني ما سبق أن الجوانب المعرفية والوجدانية والحركية في الخبرة الإنسانية منفصلة عن بعضها. فحقيقة الأمر أن كل فعل حلال يقوم به الإنسان في الأرض لا يخلو من الجوانب الثلاثة السابقة: فيه جانب الجسم، وجانب العقل، وجانب الوجدان. فالتحدث باللغة مثلا -وهو نشاط حركي- يستخدم فيه الإنسان عقله، وينفعل به أيضا، والرياضة البدنية يبدؤها الإنسان المسلم باسم الله، وينفعل بها، ويستخدم في أدائه لها عقله وجسمه، وكذلك القراءة، والكتابة، واجراء التجارب.. إلى آخره، فكل عمل تتوفر فيه العناصر الثلاثة، لكن مع الاختلاف في النسبة.

وتكامل جوانب الخبرة الإنسانية في منهج التربية الإسلامية يتفق مع فكرة الإسلام عن الوجود والحياة والإنسان. فالوجود كله صادر عن الارادة المباشرة لله.."إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون" (يس: ٨٢). وهذا الوجود الصادر عن الإرادة المطلقة، وحدة متكاملة، كل جزء فيه متناسق ومتكامل مع بقية الأجزاء.. "وخلق كل شيء فقدره تقديرا" (الفرقان: ٢) "إنا كل شيء خلقناه بقدر" (القمر: ٤٩).. "ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه" (الحج: ٦٥)... "لا

الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون" (يس: ٤٠)... "الذي خلق سبع سماوات طباقا، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر، هل ترى من فطور؟ ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير" (الملك: ٣-٤).

وهكذا، فتكامل جوانب الخبرة الإنسانية في منهج التربية الإسلامية يتماشى مع تصور الإسلام لوحدة الوجود وتكامل أجزائه، لكونه صادرا عن الإرادة المباشرة للواحد المطلق وهو الله.

وتكامل جوانب الشخصية الإنسانية في مفهوم منهج التربية الإسلامية يتفق أيضا مع تصور الإسلام لوحدة الإنسان الفرد، ووحدة الإنسانية جمعاء. فالإنسان الفرد وحدة متكاملة، وقواه المختلفة موحدة الإتجاه، فهو ليس جسما مستقلا بذاته عن الروح والعقل. وليس عقلا منفصلا لا علاقة له بالجسم والروح، وليس روحا هائمة بلا رابط من عقل وجسم، بل هو كيان واحد متكامل الأجزاء.

ويتفق هذا أيضا -كما يقول الأستاذ سيد قطب- مع فكرة الإسلام عن وحدة الإنسانية وتكاملها. "فلأن الوجود الموحد صادر عن ارادة واحدة، ولأن الناس جزء من الكون متعاون متناسق مع سائر أجزائه، ولأن أفراد الإنسان خلايا متعاونة متناسقة فيما بينها. لذلك كان تصور الإسلام أن الإنسانية وحدة تفترق أجزاؤها لتجتمع، وتختلف لتتسق، وتذهب شتى المذاهب لتتعاون في النهاية بعضها مع بعض، كي تصبح صالح لتتعاون مع الوجود الموحد" (٦٤): "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" (الحجرات: ١٣).

إذن، فهناك حكمة من وراء هذا الاختلاف والتجزؤ وهو التعاون والتكامل؛ وإلا فلو شاء الله لجعل الناس جميعا أمة واحدة... "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم، فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون" (المائدة: ٤٨)... "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة،

ولكن يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ولتسئلن عما كنتم تعملون" (النحل: ٩٣). وهكذا خلق الله الناس أمما وشعوبا مختلفة لا ليتصارعوا ويختلفوا، ولكن ليتعاونوا ويتكاملوا. ولكن الله لم يأخذ الناس قسرا إلى هذه الغاية، ولكنه جعل لكل منهم طريقا ومنهجا، وخلق لكل منهم استقدادا، ولكل منهم مشرب. لقد خلق الله الناس باستعدادات متفاوتة، نسخا غير مكررة ولا معادة. ثم أنزل لهم نواميس الهدى والضلال، تمضي بها مشيئته في الناس، وتركهم يستبقون، وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه، وهم إليه راجعون.

إذن، فالأصل في الوجود الوحدة والتعاون والتناسق في حدود منهج الله وشريعته. ومن شذ عن هذه السنة من المؤمنين فليرد إليها بكل وسيلة. لأنّ سنة الله في الكون أولى بالاتباع من أهواء الأفراد والجماعات: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت، فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين" (الحجرات: ٩).

وهكذا تتفق وحدة الشخصية الإنسانية، ووحدة تكامل الخبرة الإنسانية في منهج التربية الإسلامية مع الأصل في الإسلام، وهو أنه دين التوحيد، ودين الوحدة والتكامل بين القوى الكونية جميعا.

منهج متوازن

"فالتوازن" هو الخاصية السابعة للنظام الإسلامي ولمنهج التربية في الإسلام. وخاصية "التوازن" مترابطة مع خاصية "الشمول". فالنظام الإسلامي هو نظام شامل، وهو شمول متوازن.

وللتوازن عدة صور أهمها ما يلي:

١- التوازن بين ما يدركه الإنسان فيسلم به، وينتهي عمله فيه عند التسليم، وبين ما يتلقاه الإنسان، فيدركه، ويبحث عن علله وبراهينه وغاياته، ويفكر في

مقتضياته العملية، وتطبيقها في حياته الواقعية. إن الإنسان لا يستطيع إدراك كل شيء في الوجود، فإدراكه لا يتسع لكل شيء، فأودع الله في فطرته الإرتياح للمجهول والمعلوم، والتوازن بين هذا وذاك في كيانه.

ويقول الأستاذ سيد قطب: "إن العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول، ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشري المحدود، ليست عقيدة، ولا تجد فيها النفس ما يلبي فطرتها وأشواقها الخفية إلى المجهول. المستتر وراء الحجب المسدلة.. كما أن العقيدة التي لا شيء فيها إلا المعميات التي لا تدركها العقول ليست عقيدة! فالكينونة البشرية تحتوي على عنصر الوعي. والفكر الإنساني لا بد أن يتلقى شيئا مفهوما له، له فيه عمل، يملك أن يتدبره ويطبقه.. والعقيدة الشاملة هي التي تلبي هذا الجانب وذاك، وتتوازن بها الفطرة، وهي تجد في العقيدة كفاء ما هو مودع فيها من طاقات وأشواق...(٦٥).

فإذا كان الإنسان لا يدرك ماهية الذات الإلهية، وعلاقة إرادة الله بالخلق، وحقيقة الروح وغير ذلك من الحقائق التي لا سبيل إلى إحاطته بها -فهناك صفات الذات الإلهية من وجود ووحدانية، وقدرة وإدراك، وخلق وتدبير... وكلها صفات يستطيع الفكر الإنساني إدراكها وإدراك ضرورتها، وإدراك نتائجها في الوجود، وهناك "الكون" حقيقته، ووجوده، وعلاقة الإنسان به، ومصدره، وعبوديته لله، وهناك "الإنسان": حقيقته، ومصدره، وخصائصه، وغاية وجوده، ومنهج حياته... فكل هذه ترد في منطق مفهوم مريح للعقل والقلب، وكلها مدعمة بالبراهين والأدلة التي تجعل الإنسان يقبلها ويسلم بها في اطمئنان: "أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض؟ بل لا يوقنون" (الطور: ٣٥-٣٦) "أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم؟ بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له: كن فيكون" (يس: ٨١-٨٢).

٢- الصورة الثانية من صور التوازن، هي التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية، وثبات السنن الكونية، فالمشيئة الإلهية طليقة، تفعل كل شيء وأي شيء متى أرادت، وهي ليست ملتزمة بقاعدة أو قانون "فهي حين تريد تفعل ما تريد: "إنما قولنا لشيء -إذا أردناه- أن نقول له: كن فيكون" (النحل: ٤٠). "قال: رب أني يكون لي غلام، وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟ قال: كذلك الله يفعل ما يشاء" (آل عمران: ٤٠) "قالت: رب أني يكون لي ولد ولم يمسسني بشر؟ قال: كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضي أمرا فإنما يقول له: كن فيكون" (آل عمران: ٤٧).

"وفي الوقت نفسه شاءت الإرادة الإلهية المدبرة، أن تتبدى للناس عادة في صورة نواميس مطردة، وسنن جارية، يملكون أن يراقبوها، ويدركوها، ويكيفوا حياتهم وفقها، ويتعاملوا مع الكون على أساسها... على أن يبقى في تصورهم ومشاعرهم أن مشيئة الله -مع هذا- طليقة، تبدع ما تشاء. وأن الله يفعل ما يريد، ولو لم يكن جاريا على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه، من السنن المقررة والنواميس المطردة... ومن ثم يوجه الله الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه في الكون، والتعامل معها... والانتفاع بهذا النظر في الحياة الواقعة"(٦٦).

"لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار" (يس: ٤٠) "قد خلت من قبلكم سنن، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين" (آل عمران: ١٣٧).

"ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم، فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا، وكنا حقا علينا نصر المؤمنين" (الروم: ٤٧).

٣- وهناك صورة التوازن بين مجال المشيئة الإلهية الطليقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة، وهي القضية المشهورة باسم قضية "القضاء والقدر" أو الجبر والاختيار.

"والإسلام يثبت للمشيئة الإلهية الطلاقة... ويثبت لها الفاعلية التي لا فاعلية سواها... وهو في الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية الإيجابية -كما سنفصل ذلك في خاصية "الإيجابية"- ويجعل للإنسان الدور الأول في الأرض وخلافتها. وهو دور ضخم، يعطي الإنسان مركزا ممتازا في نظام الكون كله، ويمنحه مجالا هائلا للعمل والفاعلية والتأثير، ولكن في توازن الأسباب الظاهرة، وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداء، وإرادته وعمله، وحركته ونشاطه، داخلٌ في نطاق المشيئة الطليق، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه".(٦٧).

والقرآن الكريم ينص على وجود هذا التوازن، فنقرأ "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير" (الحديد: ٢٢).

"قل: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون" (التوبة: ٥١).

"أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" (النساء: ٧٨).

ونقرأ في الجانب الآخر:

"إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم" (الرعد: ١١).

"ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الأنفال: ٥٣).

"ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه" (النساء: ١١).

وبالرغم من هذا، فإن وجود الإنسان، وإرادته وعمله وحركة نشاطه، داخل في نطاق المشيئة المطلقة، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه، لذلك نقرأ في القرآن:

"كلا إنه تذكرة، فمن شاء ذكره، وما يذكرون إلا أن يشاء الله، هو أهل التقوى وأهل المغفرة" (المدثر: ٥٤-٥٦).

"إن هذه تذكرة، فمن شاء إتخذ إلى ربه سبيلا، وما تشاءون إلا أن يشاء الله" (الانسان: ٢٩-٣٠).

لكن شمول مشيئة الله وإرادته، "من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الإتجاه والعمل، يقوم عليه التكليف والجزاء، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة، المحيطة بالناس والأشياء والأحداث". (٦٨).

٤- الصورة الرابعة من صور التوازن هي التوازن بين عبودية الإنسان المطلقة لله، ومقام الإنسان الكريم في الكون. وقد سلم الإسلام من التطرف الذي وقعت فيه المذاهب والفلسفات ما بين تمجيد الإنسان إلى حد التأليه مرة، وتحقيره إلى حد الزراية والمهانة مرة أخرى.

فالإسلام يفصل فصلا قاطعا بين حقيقة الألوهية، ومقامها، وخصائصها، وبين حقيقة العبودية، ومقامها، وخصائصها، بحيث لا يكون ضباب ولا تحدث شبهة.

فالله ليس كمثله شيء، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو الباقي وحده، وهو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، وهو العالم وحده.

والإنسان ما هو إلا عبد لله، ككل مخلوق في هذا الوجود، لا يشارك الله في حقيقة أو ماهية أو خاصية أو صفة: "إنْ كُلُّ مَنْ في السماوات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبدا" (مريم: ٩٢).

"ولكن الإنسان-بعبوديته هذه لله- كريم على الله. فيه نفخة من روح الله. فكُرم في الكون، حتى ليأمر الله الملائكة-وهم عباده المقربون- أن يسجدوا له سجود التكريم"(٦٩): "وإذ قال ربك للملائكة: إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون" (الحجر: ٢٨-٣٠).

والإنسان مستخلف من قبل الله في هذه الأرض، مسيطر على كل ما فيها، مسخر له الأرض وما فيها ومحسوب حسابه في تصميم هذا الكون قبل أن يكون:

"وإذ قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا: سبحانك، لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال: ألم أقل لكم: إني أعلم غيب السماوات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون؟" (البقرة: ٣٠-٣٣). "وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه" (الجاثية: ١٣).

ومحسوب حسابه في تصميم الكون قبل أن يكون:

"وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون" (النحل: ١٥).

"ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض، والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؟ إن الله بالناس لرءوف رحيم" (الحج: ٦٥).

وهكذا، فلا تعارض- في المنهج الإسلامي- بين المنزلة الرفيعة للإنسان وبين عبوديته لله، بل رفعة الإنسان وتكريمه وفاعليته مستمدة جميعها من كونه عابداً لله وحده.

٥- والصورة الخامسة من صور التوازن هي: التوازن بين مصادر المعرفة، بين التلقي من الوحي والنص، والتلقي من الكون والحياة، لم يتطرف الإسلام كما تطرفت العقائد والمذاهب والفلسفات الأخرى. لم يفعل كما حدث في أوروبا من اتخاذ "الوحي" وحده مصدرا للمعرفة، ثم الإنصراف عن الوحي إلى "العقل" واتخاذ "الطبيعة" وحدها مصدرا للمعرفة. لم يتعسف الإسلام ولم يتطرف إلى درجة "تأليه"

المصدر الذي يتلقى عنه مع إهمال المصادر الأخرى إهمالا تاما. بل أخذ الإسلام من جميع المصادر، ووازن بينها. وأعطى كلا منها ما يستحق من الدرجة والاعتبار.

فالإسلام يرد كل شيء إبتداء إلى إرادة الله وتدبيره، ويرد الخلق كله-بما فيه الكون وما فيه، والإنسان وجميع قدراته إلى ارادة الله الواحد، ومن ثم فالإسلام لا يجد تناقضا في أن يكون للكون أو (الطبيعة)، وأن يكون للحياة وأوضاعها واقتصادها وسياستها دور في إمداد "الإنسان" بالمعرفة عن طريق "العقل" وسائر المدارك والطاقات الكامنة فيه. باعتبار أن هذا كله من صنع الله...فهي من عنده، كما أن الوحي من عنده أيضا. (٧٠).

فالكون-إذن- هو كتاب الله المفتوح الذي يزود الإنسان بالمعرفة كما يزوده بها الوحي. ولكن مع فارق أساسي: هو أن المعرفة التي يتلقاها الإنسان بمداركه من هذا الكون قابلة للخطأ والصواب، لأنها من إدراك الإنسان وعمله، أما ما يتلقاه الإنسان من الوحي فهو اليقين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

"لقد خلق الله هذا الإنسان متوافقا في فطرته وتكوينه مع هذا الكون، ومع سائر الأحياء..فكلهم من خلق الله. وكلهم يتلقى من الله. وكلهم يتمتع بهداه."(٧١)

"قال: ربُّنا الذي أعطى كُلَّ شيء خلقَهُ ثم هدى"(طه: ٥٠).

"سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى" (الأعلى: ١-٣).

"وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم" (الأنعام: ٣٨).

"الذي جعل لكم الأرض مهدا، وسلك لكم فيها سبلا" (طه: ٥٣).

"وفي التوافق والتناسق والتعاون بين خلق الله جميعا - وفيهم الإنسان - ترد نصوص قرآنية ذات إيحاء قوي بالوحدة والتضامن والتناسق في طبيعة التكوين وفي الإتجاه العام" (٧٢).

"ألم نجعل الأرض مهادا؟ والجبال أوتادا؟ وخلقناكم أزواجا، وجعلنا نومكم سباتا، وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا، وبنينا فوقكم سبعا شدادا، وجعلنا سراجا وهاجا، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا، لنخرج به حبا ونباتا، وجنات ألفافا" (النبأ: ٦-١٦).

"أأنتم أشد خلقا أم السماء: بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعا لكم ولأنعامكم" (عبس: ٢٤-٣٢).

والخلاصة، أنه بناء على تأكيد الإسلام على أن هناك اتفاقا وتناسقا بين الكون والإنسان، وبناء على أن الكون والإنسان وكل الحياة والأحياء من خلق الله وحده. فإن مصادر معرفة الإنسان هي:

١- الوحي، أي التلقي عن الله سبحانه ابتداء.

٢- الكون وكل الحياة والأحياء.

٣- الإنسان ذاته، فهو مصدر من مصادر التأمل والمعرفة عن طريق العقل.

والنصوص القرآنية كثيرة، وكلها توجهنا إلى هذه المصادر، فهي توجهنا إلى المصدر الأول الأصيل الصادق.

"إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم" (الإسراء: ٩).

"إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين" (يوسف: ٢-٣).

"ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون" (الجاثية: ١٩).

"ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن ابتعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم، مالك من الله من ولي ولا نصير" (البقرة: ١٢٠).

والقرآن يوجهنا إلى التلقي والمعرفة من كتاب الكون المفتوح، ومن كتاب النفس المكنون:

"وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم، أفلا تبصرون" (الذاريات: ٢٠-٢١).

"سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" (فصلت: ٥٣).

"إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" (البقرة: ١٦٤).

ويوجهنا القرآن إلى استخدام العقل للمعرفة والتعلم، إما بتدبر آيات الله في الكون، وإما بتدبر حقائق الوحي وحقائق الحياة وسننها:

"أفلا يتدبرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" (النساء: ٨٢).

"أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها؟ أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور" (الحج:٤٦).

"والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" (النحل: ٧٨).

وهكذا تتوازن مصادر المعرفة في الإسلام، وتتناسق..كل بحسب وزنه، دون تطرف أو شطط، أو تأليه ما ليس بإله.

منهج "إيجابي"

الخاصية الثامنة في النظام أو المنهج الإسلامي العام، هي الإيجابية. وللإيجابية صورتان- كما يقول الأستاذ سيد قطب-: الإيجابية الفاعلة في علاقة الله- سبحانه- بالكون والحياة والإنسان. والإيجابية الفاعلة من ناحية الإنسان ذاته. في حدود مجاله الإنساني. (٧٣).

في التصور الإسلامي، ليس هناك شك في إيجابية الله- سبحانه- في علاقته بخلائقه كلها، ومنها الإنسان. فالإنسان في التصور الإسلامي يتعامل مع إله موجود، خالق، مريد، مدبر، مهيمن، قادر. فعال لما يريد...كامل الإيجابية والفاعلية...إليه يرجع الأمر كله. وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون إبتداء. وكل انبثاقة فيه بعد ذلك، وكل حركة، وكل تغير وكل تطور. ولا يتم في هذا الكون شيء إلا بإرادته وعلمه وتقديره وتدبيره، وهو - سبحانه - مباشر بإرادته وعلمه وتدبيره لكل عبد من عباده، في كل حال من أحواله ولكل حي ولكل شيء وفي هذا الوجود كذلك. (٧٤).

ويحفل القرآن الكريم بتقرير هذه الحقيقة الأساسية، وهي إيجابية الله - سبحانه - في علاقته بالكون والحياة والأحياء، بما فيهم الإنسان: "إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يغشي الليل والنهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين" (الأعراف: ٥٤).

"وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض، إنه كان عليما قديرا" (فاطر: ٤٤).

"وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير" (الأنعام: ١٨).

"الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسر القول ومن جهر به،

ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. له معقبات من بين يديه ومن خلفه -يحفظونه- من أمر الله، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال. هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا، وينشيء السحاب الثقال. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال"(الرعد: ٨-١٣).

وهكذا، فالإنسان المسلم يؤمن ويدرك أن الله خالقه ورازقه، ومالك أمره كله في الدنيا والآخرة، كما يؤمن ويدرك ويحس أنه يتعامل مع إله واحد، له إرادة واحدة، ومنهج واحد، وبذلك فهو يعلم بدقة ما يريده منه الله، وما يكرهه منه.

فإله المسلم ليس كإله أرسطو، سلبيا لا عمل له ولا إرادة، من كماله ألا يشعر بغير ذاته، ولا يفكر إلا في ذاته، وليس كإله أفلاطون، لا يشعر حتى بذاته، لأنه يتنزه عن ذلك الشعور، وليس كإلهي الفرس: "هرمز" الخاص بعالم النور والخير، و"أهرمان" الخاص بعالم الظلام والشر، اللذان احتدمت المعارك بينهما. وهو ليس إلها خاصا كإله بني اسرائل "يهوا" الذي رسمته تصوراتهم المنحرفة على أنه غيور ثائر محطم إذا ما عبد شعبه الآلهة الغريبة، وهو راض ومستريح ونادم على ما فعل إذا ما عاد شعبه إليه، وليس كالتصورات الكنسية التي تجعل إرادة الله متلبسة في إرادة المسيح...إلى آخره.

وإله المسلم ليس مثل "الطبيعة" الخرساء الصماء، التي لا تطالب عابديها بعقيدة ولا بشعيرة، ولا بالسير حسب منهج ولا نظام في الحياة، ولا أخلاق، ولا آداب، ولا ضمير ولا سلوك، ولا تحس بوجودهم أصلا. فالمسلم يعرف أن إلهه "الله" الحي الذي لا يموت، الصمد المقصود في الحاجات، الرقيب الذي لا يغفل، العادل الذي لا يظلم، الرحيم الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء....

"ولقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير هذه الحقيقة في تصور المسلمين وتأكيدها، وتقرير "وجود" الله سبحانه في حياتهم وتوسيعه وتعميقه...وكانت حياة الجماعة المسلمة الأولى في ظلال الوحي المتلاحق، المتعلق بواقع حياتهم، وبما يهجس كذلك في ضمائرهم، مثلا حيا، وترجمة عملية، لهذه الحقيقة...فقد رأينا يد الله - سبحانه - تتدخل جهرة، وعينه تلحظ، وسمعه يرعى، أحوالهم اليومية، وأعمالهم الشخصية، وحياتهم الفردية والجماعية".(٧٥).

لقد شهدنا العناية الإلهية تتدخل علانية في شأن أسرة صغيرة، لتقرر الحكم في قضية بين امرأة وزوجها، حين لم يجد الرسول-صلى الله عليه وسلم- فيها رأيا: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما، إن الله سميع بصير" (المجادلة: ١).

كما شهدناها تتدخل في شأن الرجل الأعمى الفقير، إبن أم مكتوم، مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في هذه الصورة الرائعة:
"عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى فأنت له تصدى! وما عليك ألا يزكى، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى، فأنت عنه تلهى؟ كلا! إنها تذكرة، فمن شاء ذكره" (عبس: ١-١٢).

وشهدنا هذا التدخل - كما يقول الأستاذ سيد قطب (٧٦)- في الأحداث الكبرى: كالهجرة، وبدر، وأحد، ورأينا هذا التدخل المباشر في شأن موسى عليه السلام مع فرعون، وفي شأن نوح مع قومه وفي شأن إبراهيم عليه السلام مع قومه، وفي شأن الكون كله...

ولقد كان من أثر استقرار هذه الحقيقة في ضمير الجماعة المسلمة الأولى، ومعايشتهم لها ليل نهار لتلك العظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحربية والخلقية التي ليس لها نظير في التاريخ الإنساني كله من قبل ومن بعد.

والصورة الثانية من صور الإيجابية في المنهج الإسلامي العامود "هي إيجابية الإنسان في الكون، وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة في واقع الحياة على وجه خاص.

"إن هذا التصور، ما يكاد يستقر في الضمير حتى يتحرك ليحقق مدلوله في صورة عملية، ليترجم ذاته في حالة واقعية، والمؤمن بهذا الدين ما يكاد الإيمان يستقر في ضميره حتى يحس أنه قوة فاعلة مؤثرة، فاعلة في ذات نفسه، وفي الكون من حوله".

"إن التصور الإسلامي ليس تصورا سلبيا يعيش في عالم الضمير، قانعا بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية، أو تصوفية روحانية، إنما هو "تصميم" لواقع مطلوب إنشاؤه، وفق هذاالتصميم، وطالما هذا الواقع لم يوجد، فلا قيمة لذلك التصميم في ذاته، إلا باعتباره حافزا لا يهدأ لتحقيق ذاته".

"وحيثما ذكر الإيمان في القرآن، أو ذكر المؤمنون، ذكر العمل، الذي هو الترجمة الواقعية للإيمان، فليس الأمر مجرد مشاعر، إنما هو مشاعر تفرغ في حركة، لإنشاء واقع، وفق "التصميم" الإسلامي للحياة". (٧٧)

"إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله - ثم لم يرتابوا - وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون" (الحجرات: ١٥).

"وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك، فأولئك هم الفاسقون"(النور: ٥٥).

"كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (آل عمران: ١١٠).

"فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض، فالذين هاجروا، وأخرجو من ديارهم، وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ثوابا من عند الله، والله عنده حسن الثواب" (آل عمران: ١٩٥).

"فليس هناك إيمان هو مجرد مشاعر في الوجدان أو تصورات في الذهن، لا ترجمة لها في واقع الحياة. وليس هناك إيمان هو مجرد شعائر تعبدية، وليس معها عمل يكيف منهج الحياة كله ويخضعه لشريعة الله" (٧٨).

وفي طبيعة المنهج الإسلامي ذاته ما يحفز الإنسان على الحركة الإيجابية لتحقيق هذا المنهج أو التصميم في واقع الحياة. "فالمسلم يعرف - من تصوره الإسلامي - أن "الإنسان" قوة إيجابية فاعلة في هذه الأرض، وأنه ليس عاملا سلبيا في نظامها. فهو مخلوق ابتداء ليستخلف فيها، وهو مستخلف فيها ليحقق منهج الله في صورته الواقعية: لينشىء ويعمر، وليغير ويطور، وليصلح وينمي، وهو معان على هذه الخلافة: معان من الله - سبحانه - بجعل النواميس الكونية وطبيعة الكون الذي يعيش فيه معاونة له:

" هو الذي أنزل من السماء ماء، لكم منه شرابه، ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم، وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون" (النحل: ١٠-١٥).

وهو معان من الله كذلك بما وهبه من القوى، والاستعدادات الذاتية والقدرات الإدراكية، وهو يكلفه أمر الخلافة.

"والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" (النحل: ٧٨).

"وشعوره بأنه مكلف بالعمل، ومعان عليه، ينفي عنه الشعور بالسلبية في نظام هذا الكون...وانتفاء الشعور بالسلبية يهيئه للحركة والتأثير والفاعلية. غير أن الإسلام لا يكتفي بأن يدفع عن المسلم الشعور بالسلبية، بل يمده بدوافع الحركة الإيجابية كذلك، إذ يعلمه أن قدر الله ينفذ فيه وفي الأرض من حوله، عن طريق حركته هو ذاته: (٧٩).

"إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". (الرعد: ١١).

"قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء، والله عليم حكيم" (التوبة: ١٤-١٥).

"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين" (البقرة: ٢٥١).

"وقل إعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون" (التوبة: ١٠٥).

إن خاصية الإيجابية في منهج الله العام تقتضي من المتعلم في منهج التربية في الإسلام أن يدفع عن نفسه الشعور بالسلبية، وأن يتزود بدوافع الحركة الإيجابية. كما تقتضي من المتعلم أيضا نشاطا إيجابيا ووعيا بأبعاد الموقف التعليمي وتفاعلا معه، والأصل هنا أن منهج التربية الإسلامية لا يعتمد في طرائقه وأساليبه على التلقين وحده، بل يهتم -بالدرجة الأولى- بالتعلم عن طريق الأحداث، وعن طريق الممارسة والعمل، وعن طريق الثواب والعقاب، وعن طريق القصة، وضرب المثل، والتجسيم والتصوير، والقدوة، وعن طريق استخدام قوى

الإدراك الظاهرة والباطنة التي زود الله الإنسان بها، ليستخدمها إلى أقصى طاقاتها: "والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" (النحل: ٧٨) .

"كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب" (ص: ٢٩).

إن مجرد المعرفة النظرية، أو العلم الذي لا يؤثر في سلوك الإنسان وفي واقع حياته لا قيمة لهما ولا يعتد بهما منهج التربية الإسلامية. إن ذلك العلم خاو من المعنى ولا قيمة له. وتلك المعرفة سطحية ولا قيمة لها أيضا. لأنها مجرد معرفة "ذهنية"، لا تؤثر في سلوك الإنسان، ولا تغير شيئا في واقع حياته على الأرض. إن تلك المعرفة وذلك العلم -باختصار- لا يعينان الإنسان على أداء وظيفته في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، ولهذا كان الوحي قاطعا في رده على المنافقين: إن كنتم مؤمنين حقا فآية إيمانكم هي تنفيذ أحكام الله: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما" (النساء: ٦٥).

منهج "واقعي"

الخاصة التاسعة من خواص النظام أو المنهج الإسلامي -التي يشرحها لنا الأستاذ سيد قطب- هي الواقعية، أي التحقق في عالم الواقع. فالمنهج الإسلامي هنا "يتعامل مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود الحقيقي المؤكد، والأثر الواقعي الإيجابي، لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع مثاليات لا مقابل لها في عالم الواقع، أو لا وجود لها في عالم الواقع.

"ثم إن "التصميم" الذي يضعه للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية كذلك، لأنه قابل للتحقيق الواقعي في الحياة الإنسانية...ولكنها في الوقت ذاته واقعية مثالية، أو مثالية واقعية، لأنها تهدف إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج، تملك البشرية أن تصعد إليه...(٨٠).

"إنه يتعامل مع الحقيقة الإلهية، متمثلة في آثارها الإيجابية، وفاعليتها الواقعية، ويتعامل مع الحقيقة الكونية متمثلة في مشاهدها المحسوسة، المؤثرة أو المتأثرة، ويتعامل مع الحقيقة الإنسانية، متمثلة في الأناسي كما هم في عالم الواقع.

فالحقيقة الإلهية التي يتعامل معها هذا المنهج تتمثل في "الله". المتفرد بالألوهية، وبكل خصائص الألوهية، لكن خصائص الألوهية كلها من عالم الواقع، وذات أثر في عالم الواقع، ويمكن لكل متدبر أن يدرك آثارها الواقعية في كل مظاهر الكون من حوله. فالعقل البشري هنا غير متروك للضرب في التيه، يتصور الحقيقة الإلهية على هواه من خلال قضايا منطقية مجردة، أو ميتافيزيقيا مثالية لا أثر محسوسا لها.

وإنما يتعامل المنهج الإسلامي مع إله "موجود" يدل خلقه على وجوده، وهو "مريد" "فعال لما يريد"، تدل حركة هذا الكون وما يجري فيه على إرادته وقدرته.

وباختصار "فإن الحقيقة الإلهية في التصور الإسلامي، حقيقة فاعلة في هذا الوجود، وتلتمس خصائصها وصفاتها في آثارها الواقعية في هذا الوجود...وهذا ما يفصله القرآن الكريم، وهو يصف الحقيقة الإلهية للناس، وهو يعرفهم بربهم تعريفا يسيرا عميقا واضحا، وهو يستشهد بواقع الكون وواقع الناس، في منطق فكري واقعي جميل" (٨١).

"فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون. يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويحي الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون. ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا، وينزل من السماء ماء، فيحي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم

يعقلون. ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون. وله من في السماوات والأرض كل له قانتون. وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده -وهو أهون عليه- وله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم" (الروم: ١٧-٣٧).

"فاطر السماوات والأرض، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا، يذرؤكم فيه، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بكل شيء عليم" (الشورى: ١١-١٢).

بمثل هذه الواقعية يواجه المنهج الإسلامي الكون..."فهو يتعامل مع هذا الكون الواقعي الممثل في أجرام وأبعاد، وأشكال وأوضاع، وحركات وآثار وقوي وطاقات، لا مع الكون الذي هو "فكرة" مجردة عن الشكل والقالب...ولا مع الكون الذي هو "صورة" أو "مثال" في العقل المطلق! أو الكون الذي هو "الطبيعة" الخالقة! التي تطبع الحقائق في العقل البشري.

الكون في التصور الإسلامي هو كل الخلائق التي أبدعها الله، وقال لها: كوني، فكانت. والتي نسقها بحيث لا تتعارض ولا تتصادم، والتي جعلها خاضعة لإرادته، عابدة له، مسخرة لأمره. فالكون إذن هو السماوات والأرض، والنجوم والكواكب، جميع الكائنات، الليل والنهار، والنور والظلال، الرعد والبرق والمطر، هو كل المخلوقات والظواهر الكونية ذات الوجود الحقيقي، والتي يدركها الإنسان، ويوجه القرآن عقل الإنسان وقلبه إليها لإدراكها، كدليل على وجود خلقها، ووحدانيته، وهيمنته وتدبيره، وعلمه وتقديره: (٨٢).

"الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون" (الأنعام: ١).

"إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يدبر الأمر، ما من شفيع إلا من بعد إذنه، ذلك الله ربكم فاعبدوه، أفلا

تتذكرون؟..."هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون، إن في اختلاف الليل والنهار، وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون" (يونس: ٣-٦).

"وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق، وأنه يحي الموتى، وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور" (الحج: ٥-٧).

"ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل؟ ولو شاء لجعله ساكنا، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا، وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا، وجعلنا النهار نشورا، وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته، وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا، ونسيقه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا" (الفرقان: ٤٥-٤٩).

"كذلك يتعامل التصور الإسلامي مع الإنسان، مع هذا الإنسان الواقعي، الممثل في هؤلاء البشر كما هو، بحقيقتهم الموجودة! مع هذا الإنسان ذي التركيب الخاص، والكينونة الخاصة، الإنسان من لحم ودم وأعصاب، وعقل ونفس وروح، الإنسان ذي النوازع والأشواق، والرغائب والضرورات، الإنسان الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويحيا ويموت، ويبدأ وينتهي، ويؤثر ويتأثر، ويحب ويكره، ويرجو ويخاف، ويطمع ويبأس، ويعلو وينحط، ويؤمن ويكفر، ويهتدي ويضل، ويعمر الأرض أو يفسد فيها ويقتل الحرث والنسل...إلى آخر سمات الإنسان الواقعي، وصفاته المميزة. (٨٣).

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير" (الحجرات: ١٣).

"سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" (يونس: ١٢).

"ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد..." "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد" (البقرة: ٢٠٤-٢٠٧).

إن هذا هو "الإنسان" الذي خلقه الله ليستخلفه في هذه الأرض، يقوم فيها بالخلافة الحركية الإيجابية، التي تنشيء وتبدع في عالم المادة ما يتم به قدر الله في الأرض والأحياء والناس.

"إنه الإنسان الواقعي...ومن ثم فإن المنهج الذي يرسمه له الإسلام منهج واقعي كذلك، منهج حركي تنطبق حدوده على حدود طاقات الإنسان، وتكوينه وواقعية لحمه ودمه وأعصابه، وجسمه وعقله وروحه، الممتزجة في ذلك الكيان".

"والمنهج الإسلامي للحياة، على كل رفعته ونظافته وربانيته ومثاليته-هو في الوقت نفسه منهج لهذا الإنسان- في حدود طاقاته الواقعية- ونظام لحياة هذا الكائن البشري الذي يعيش في هذه الأرض، ويأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويتزوج ويتناسل، ويحب ويكره، ويرجو ويخاف، ويزاول كل خصائص الإنسان الواقعي كما خلقه الله".

"وهو يأخذ في اعتباره فطرة الإنسان، وطاقاته واستعداداته، وفضائله ورذائله، وقوته وضعفه، فلا يسوء ظنه بهذا الكائن، ولا يحتقر دوره في الأرض...كما لا يرفع هذا الإنسان إلى مقام الألوهية...كذلك لا يتصوره ملكا نورانيا...ومن ثم لا يستقذر دوافع فطرته ومقتضيات هذا التكوين الفطري".

"ومع اعتبار المنهج الإسلامي لإنسانية الإنسان من جميع الوجود، فهو وحده الذي يملك أن يصل به إلى أرفع مستوى، وأكمل وضع، يبلغ إليه الإنسان، في أي زمان وفي أي مكان" (٨٤) هذه هي المثالية الواقعية، والواقعية المثالية في آن.

بهذا المفهوم الشامل المتكامل، لمقومات المنهج الإسلامي وخصائصه، لا نقول: إنه منهج قابل للتطبيق، بل نقول: إنه منهج قد طبق بالفعل على مدى قرون طويلة، وتربت في ظله أجيال عديدة، وأخرج للإنسانية أمة وصفها الله بقوله: "كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله" (آل عمران: ١١٠).

فعندما طبقت الأمة الإسلامية هذا المنهج، بهذا التصور كانت خير أمة في تاريخ البشرية، وحوت من ألوان العظمة في كل إتجاه ما لم يجتمع لأمة أخرى في تاريخ الإنسانية بهذه الوفرة، وذلك التنوع، عظمة حربية، وعظمة سياسية، وعظمة علمية، وعظمة إدارية، وعظمة نفسية، وعظمة روحية، عظمة من كل نوع رسخت أسس التاريخ الإسلامي على الأرض، بما قدمت من مبادىء عليا مطبقة في التاريخ الإسلامي بصورة فريدة، صورة يلتقي فيها المثال والواقع، فلا تكاد تعرف من روعة العظمة المذهلة- أيهما الواقع، وأيهما المثال! (٨٥).

وبعد هذا العرض، نستطيع أن نقول عن يقين لا يتطرق إليه شك: إنه لا يمكن تصميم منهج سليم للتربية الإسلامية، ولا نظام للإقتصاد، أو السياسة، أو الإجتماع دون "فهم" لهذا التصور الشامل المتكامل لمنهج الإسلام وخصائصه السابق ذكرها، فهما يقوم على الإيمان بهذا التصور والعمل بمقتضاه.

إن منهج التربية الإسلامية منهج إيجابي وواقعي فهو -كما يقول الأستاذ سيد قطب:- "تصميم" لواقع مطلوب إنشاؤه على أساس هذا التصميم، والإنسان وحده - باعتباره خليفة الله في الأرض- هو المكلف بتنفيذ هذا "التصميم" عن طريق التفكر والتدبر والنشاط بإيجابية وفاعلية.

وينسحب هذا -بطبيعة الحال- على الموقف التعليمي، فمجرد تقديم الخبرة للمتعلم لا يعني- بالضرورة- تعلمه، وتعديل سلوكه في الإتجاه المطلوب. فلا بد من أن ينشط الإنسان، ويتفاعل مع الموقف التعليمي، بل ولا بد وأن ينعكس هذا الموقف على سلوك الإنسان بعد ذلك.

والأصل في هذا، أن التعلم لا يحدث وفقا لتصور منهج التربية الإسلامية إلا بعد تمام خمس خطوات مرتبة ترتيبا سببيا، وهي كما يلي:

١- وجود دافع فطري أو حاجة من حاجات النفس الغريزية أو المكتسبة.

٢- أن يحس الإنسان أو المتعلم بحاجته إلى الإستعانة بهدي الله، في إشباع هذه الحاجة أو ذلك الدافع.

٣- فإذا كان لديه هذا الإتجاه وهذا الشعور، فإنه يدفعه إلى النشاط وإلى التفاعل والأخذ بكل الأسباب الممكنة من أجل التعرف على تفاصيل ما يريد أن يعرف.

٤- ونتيجة للإستعانة بهدي الله. والأخذ بكل الأسباب الممكنة، يحدث الفهم، ويتم التحصيل.

٥- فاذا جاء السلوك بعد ذلك موافقا للفهم والإدراك والتحصيل، فإذا التعلم يكون قد تم.

إن هذا ما نراه واضحا جليا في قوله تعالى: "واتقوا الله ويعلمكم الله" (البقرة: ٢٨٢).. "ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمؤمنين، الذي يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون" (البقرة: ١-٣). وهكذا، فما لم يتكون الشعور والاتجاه، ويتم النشاط، ويحصل الإدراك والفهم، ويتحول كل ذلك إلى سلوك عملي في واقع الأرض، فإن فالتعلم لا يقع.

منهج فريد:

وانطلاقا من المفهوم السابق والقواعد التي يرتكز عليها، فإن منهج التربية الإسلامية قد يتفق مع بعض مناهج العالم في كثير من التفصيلات والفروع، ولكنه يختلف عنها -قطعا- في القواعد والأصول التي ينبثق منها. فمعظم مناهج الأرض تهتم -مثلا- بدراسة العلوم والرياضيات، وكذلك يفعل منهج التربية الإسلامية، إلا أن كثيرا من بلاد الدنيا قد تهتم بتدريس هذه المناهج لا لترقية حياة المواطنين في مجتمعاتها فقط، ولكن لاستغلال تطبيقاتها التقنية في صنع أدوات الحرب والدمار، لا للدفاع عن النفس فقط، بل وللاعتداء على حقوق الآخرين وحرماتهم أيضاً. إن الناظر حوله يرى حروبا مدمرة لكل حي على وجه الأرض. هذه الحروب تمولها وتغذيها مجتمعات تقدمت في تطبيقاتها التقنية للعلوم والرياضيات. لكن منهج التربية الإسلامية إنما يهتم بهذه المواد والدراسات لتزويد الإنسان المسلم بالمعلومات والمهارات والتجارب التي تمكنه من عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، والقيام بحق استخلاف الله له فيها أينما وجد، وحيثما وجد.

ومعظم مناهج الأرض تهتم بدراسة التاريخ والجغرافيا، وكذلك يفعل منهج التربية الإسلامية، إلا أن معظم هذه المناهج يهدف إلى تربية العزة القومية، والنعرة الوطنية، وتخليد المثل والنماذج التاريخية لتقوية الإتجاهات العنصرية. لكن منهج التربية الإسلامية يؤكد عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها التي قررها الله في قوله: "إن هو إلا ذكر للعالمين" (التكوير: ٢٧، وص: ٨٧)... "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (الأنبياء: ١٠٧)، فمنهج التربية الإسلامية لا يهدف إلى إعداد "المواطن" الصالح، وإنما يسير وفق ما تقتضيه عالمية الإسلام، فيسعى إلى تحقيق هدف أكبر وأشمل- كما سبق أن قلنا- وهو إعداد "الإنسان" الصالح أيا كان موطنه، الإنسان القادر على القيام بحق الخلافة، وحق الخلافة لدى الإنسان هو المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وفق منهج الله.

كما أن من أهم أهداف الدراسة في العلوم الاجتماعية عموما هو تربية الإتجاه إلى التفكير في الأنفس وفي الآفاق، وتدبر العبرة من الحوادث التي تقع في الأرض، وربط كل ذلك بإرادة الصانع الحكيم، وهنا -مرة أخرى- ترتبط الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة.

ومعظم مناهج الدنيا تهتم بتدريس الآداب والفنون المختلفة، وكذلك يفعل منهج التربية الإسلامية. لكن معظم هذه المناهج تهدف -فقط- إلى تربية الإحساس بالذوق والجمال في الطبيعة وفي الكون في ذاته. لكن منهج التربية الإسلامية يضيف إلى تربية الإحساس بالذوق والجمال في الكون كله، اعتباره من صنع الله الذي أتقن كل شيء. فوظيفة الفن إزالة البلادة المتراكمة على القلوب، وجلاء الإحساس، وإثارة المشاعر للتعبد بدقة الصانع القادر.

ومعظم مناهة الدنيا تهتم بتدريب المتعلمين على الرياضة البدنية والألعاب الرياضية المختلفة، ومنهج التربية الإسلامية يفعل ذلك، لا لتدريب الناشئة على الطاعة والحرص على النظام فقط، كما تفعل بعض النظم، ولا لتربية الروح التعاونية والجماعية فقط، كما تفعل بعض النظم الأخرى، ولا لصناعة الأجساد الجميلة وبيعها، والإتجار بها في أسواق الرقيق المعاصرة، كمال تفعل بعض الهيئات والمؤسسات. وإنما الذي يعني منهج التربية الإسلامية من التربية البدنية والرياضية هو بناء المؤمن القوي بجسمه وعقله ومشاعره. المؤمن القادر على الكد والكدح في الأرض بما يسره الله له، المؤمن القادر على محاربة طواغيت الأرض، والقادر على الجهاد في سبيل تنفيذ منهج الله، "فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف" كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمؤمن القوي هو الذي لا يظلم الناس، ولا يظلم نفسه، ولا يرضى بوقوع الظلم دون أن يحاربه. والمؤمن القوي هو الذي يكافح في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية في حدود منهج الله. فالإسلام لا يريد الناس أن يتركوا حقوقهم على

الأرض وينتظروها في ملكوت السماء. بل إنه لينذر الذين يتنازلون عن حقوقهم المشروعة، تحت أي ضغط، بسوء العذاب في الآخرة، ويسميهم "ظالمي أنفسهم": "إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا: فيهم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا" (النساء: ٩٧). وأكثر من ذلك، فالإسلام يحرض المؤمن على القتال في سبيل الحصول على حقه "ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد" (رواه النسائي).

وعلى هذا فإن منهج التربية الإسلامية لا يفيد الإنسان في نطاق حاجاته الأرضية أو الوطنية أو القومية، وإنما يزوده بالحقائق الثابتة، والمفهومات والمعلومات والمهارات والخبرات المتغيرة، التي تقدره على الربط بين الأرض والسماء في آن واحد. فقيمة العلم تكمن في مدى فائدته في بناء الإنسان بحيث يكون قادرا على عمارة الأرض وترقيتها في حدود منهج الله. فالمنهج هنا يربط بين التقوى والعلم: "واتقوا الله ويعلمكم الله" (البقرة: ٢٨٢). ويجعل العلم سبيلا إلى معرفة الله وخشيته: "إنما يخشى الله من عباده العلماء" (فاطر: ٢٨).

إن العلم في منهج التربية الإسلامية هو معرفة قوانين الله في الكون، وتطبيقاتها في عمارة الأرض. فالعلم الصحيح -إذن- هو الذي يؤدي إلى معرفة الله. وهذا العلم فريضة مقدسة: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" (رواه ابن ماجة). وبذل الجهد في طلب العلم جهاد، أي عبادة، "من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة" (رواه مسلم).

نحن إذن حيال منهج فذ، شامل، متكامل، لتربية الإنسان كله: جسمه وعقله ووجدانه، تربية متكاملة، تربية الإنسان القوي القادر على المساهمة في عمارة الحياة وترقيتها، الإنسان التواق إلى العدل، المناضل من أجل الظفر بالحرية، الذي تحركه الأشواق إلى الخير، والحق، والجمال، الإنسان الذي يعمر قلبه الإيمان، وحب الآخرين، والرغبة في إسعادهم، الإنسان الذي يتحدى الخطر والفقر، ويقتحم المجهول في جسارة مستعينا بالله، ليصوغ لنفسه وللناس عالما أفضل.

إن ذلك المنهج الذي يربي الإنسان الموصول الصلة دائما بالله، الذي يربط بين الدنيا والآخرة، كما يربط ملكوت الأرض بملكوت السماء...ذلك المنهج هو هويتنا التربوية، لأنه وسيلتنا إلى تحقيق هويتنا الكلية، وهي أن نكون مسلمين حقا.

الهوامش

(١) أنظر: مروان كجك، الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتلفزيون، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(٢) أنظر: عبد الله بن حمد الشبانة، المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، الرياض، دار طيبة، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م، ص١٦٤-١٦٥.

(٣) سيد قطب: معالم في الطريق، بيروت، دار الشروق، الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص٥.

(٤) أنظر: أبو الحسن الندوي: كيف توجه المعارف في الأقطار الإسلامية، ص٧-٨.

(٥) أبو الحسن الندوي: نحو التربية الإسلامية الحرة، ص٢٨-٢٩.

(٦) أنظر: علي أحمد مدكور: المفاهيم الأساسية لمناهج التربية، الرياض، دار أسامة للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

(٧) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الطبعة الشرعية السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، ص٣٣.

(٨) محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ط٦، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، ص١٦.

(٩) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص٨١.

(١٠) المرجع السابق، ص٤٢.

(١١) المرجع السابق، ص١٨٧.

(١٢) أنظر: فصل "حقيقة الألوهية" في المرجع السابق، ص١٨٧.

(١٣) المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(١٤) المرجع السابق، ص ٣٢٢-٣٢٥.

(١٥) أنظر: نموذج النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان في:
إسحق أحمد فرحان: التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م، ص١٦.

(١٦) حسن البنا: حديث الثلاثاء، القاهرة، مكتبة القرآن، سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور، بدون تاريخ، ص ٣٤-٤٥.

(١٧) إسحق أحمد فرحان: مرجع سابق، ص١٨.

(١٨) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص١٣٢.

(١٩) حسن البنا: مرجع سابق، ص٤٨.

(٢٠) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، ص٣٦٧.

(٢١) المرجع السابق، ص ٣٥٧-٣٥٩.

(٢٢) أنظر للباحث: في بيان طبيعة المجتمع الإسلامي، طبيعة المعرفة في التصور الإسلامي: منهج التربية في التصور الإسلامي، بيروت، دار النهضة العربية، ١١٠هـ -١٩٩٠م، ص٢١٤.

(٢٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية العاشرة، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م، ص٢١٤.

(٢٤) ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٤٥٥٤.

(٢٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، دار الأندلس، ١٤٠٠هـ، ص٥٨٨.

(٢٦) محمد عزت عبد الموجود وزملاؤه: أساسيات المنهج وتنظيماته، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م، ص١١.

(٢٧) علي أحمد مدكور: المفاهيم الأساسية لمناهج التربية، الرياض، دار أسامة للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ -١٩٨٩م، ص١٥٣-١٥٤.

(٢٨) يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٠١هـ، ص٧.

(٢٩) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص٤٤.

(٣٠) المرجع السابق، ص٤٥.

(٣١) المرجع السابق، ص٤٧.
(٣٢) يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٧.
(٣٣) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص٤١.
(٣٤) سيد قطب: العدالة الإجتماعية في الإسلام، القاهرة -بيروت، دار الشروق، الطبعة الشرعية التاسعة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ٢٠٢.
(٣٥) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص١٨٣.
(٣٦) أنظر في تفصيل الإنحرافات والتحريفات التي وقعت في تصورات أتباع الرسل، في الديانتين: اليهودية والنصرانية. في فصل "الإنسانية في الاحتضار" من كتاب الأستاذ أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.
(٣٧) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص١٨٢.
(٣٨) المرجع السابق، ص١٩٠.
(٣٩) المرجع السابق، ص١٩٨.
(٤٠) المرجع السابق.
(٤١) المرجع السابق، ص٢٠٠.
(٤٢) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامي، بيروت، دار الشروق، ط٦، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م، ص١١٠.
(٤٣) أنظر: أبو الحسن الندوي: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، دمشق، دار العلم، الطبعة السادسة، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
(٤٤) المرجع السابق، ص٩٦.
(٤٥) محمد حسنين هيكل: حوار مع اينشتين: أخبار اليوم، عدد ٢٢٠٤، في ١٤/١/١٩٨٧م.
(٤٦) أنظر في تفصيل خاصية "الثبات" إلى الأستاذ سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، فصل "الثبات".

(٤٧) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، الجزء الثاني، بيروت، دار الشروق، ١٤٠١هـ -١٩٨١م، ص٣٢٠-٣٢١.
(٤٨) المرجع السابق، ص٣٢٣.
(٤٩) المرجع السابق.
(٥٠) المرجع السابق، ص٣٢٦.
(٥١) أنظر: تفصيل خاصية "الشمول" في سيدقطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، فصل "الشمول".
(٥٢) المرجع السابق، ص٩٢.
(٥٣) المرجع السابق، ص٩٧.
(٥٤) المرجع السابق.
(٥٥) المرجع السابق، ص١٠٧.
(٥٦) المرجع السابق، ص١٠٨.

(٥٧) أنظر: أبو الأعلى المودودي: مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، الرياض، الدار السعودية للتوزيع والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ص ٣٩-٤٢.
(٥٨) سيد قطب: في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية العاشرة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٥٨٩-٥٩١.
(٥٩) محمد قطب: مرجع سابق، ص٣٤.
(٦٠) المرجع السابق، ص٦٧.
(٦١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص ١٠٨-١٠٩.
(٦٢) المرجع السابق، ص١١٠.
(٦٣) أنظر: سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص١٣.
(٦٤) المرجع السابق.

(٦٥) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص١١٤-١١٥.

(٦٦) المرجع السابق، ص١١٨-١١٩.

(٦٧) المرجع السابق، ص ١٢٠-١٢١.

(٦٨) المرجع السابق، ص ١٢٣-١٢٤.

(٦٩) المرجع السابق، ص ١٣١.

(٧٠) المرجع السابق، ص١٣٨.

(٧١) سيد قطب: المرجع اسابق، ص١٣٨.

(٧٢) سيد قطب: المرجع السابق، ص١٣٩.

(٧٣) المرجع السابق، ص١٤٦.

(٧٤) المرجع السابق، ص١٤٩.

(٧٥) المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٧٦) تفاصيل ذلك موجود في فصل "الإيجابية" المرجع السابق.

(٧٧) المرجع السابق، ص ١٥٦-١٥٧.

(٧٨) المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٧٩) المرجع السابق، ص ١٦٠-١٦١.

(٨٠) المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٨١) المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٨٢) المرجع السابق، ص١٦٩-١٧٠.

(٨٣) المرجع السابق، ص١٧٣.

(٨٤) المرجع السابق، ص ١٧٦-١٧٧.

(٨٥) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ج٢، ص١٥.

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الحديث النبوي الشريف.

٣- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، ١٤٠٠هـ.

٤- أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٥- أبو الحسني الندوي: نحو تربية إسلامية حرة، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر.

٦- أبو الحسن الندوي: كيف توجه المعارف في الأقطار الإسلامية.

٧- أبو الحسن الندوي: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، دمشق، دار القلم، الطبعة السادسة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٨- أبو الأعلى المودودي: المنهج الإسلامي الجديد للتربية والتعليم، جمعه وقدم له وعلق عليه محمد مهدي الاستانبولي، الطبعة الثانية، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م.

٩- أبو الأعلى المودودي: مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، الرياض، الدار السعودية للتوزيع والنشر، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.

١٠- إسحق أحمد فرحان: التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١١- حسن البنا: حديث الثلاثاء، القاهرة، مكتبة القرآن، سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور.

١٢- عبد الله أحمد الشبانة: المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٣- علي أحمد مدكور: منهج التربية في التصور الإسلامي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.

١٤- علي أحمد مدكور: المفاهيم الأساسية لمناهج التربية، الرياض، دار أسامة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.
١٥- سيد قطب: في ظلال القرآن، القاهرة- بيروت، دار الشروق، الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م.
١٦- سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، القاهرة- بيروت، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م.
١٧- سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، القاهرة وبيروت، دار الشروق، الطبعة الشرعية السابعة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
١٨- سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، القاهرة، بيروت، دار الشروق، الطبعة الشرعية التاسعة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
١٩- سيد قطب: معالم في الطريق، القاهرة، بيروت، دار الشروق، الطبعة الشرعية العاشرة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٢٠- سيد قطب: نحو مجتمع إسلامي، القاهرة-بيروت، دار الشروق، الطبعة السادسة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٢١- محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، القاهرة-بيروت، دار الشروق، الطبعة السادسة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٢٢- محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، جزءان، القاهرة-بيروت، دار الشروق، الطبعة السادسة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٢٣- محمد عزت الموجود وزملاؤه: أساسيات المنهج وتنظيماته، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م.
٢٤- مروان كجك: الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتلفزيون، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٢٥- يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، القاهرة، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.